حكايات كوندوروشكين

لبنان قبل قرن بريشة روسية



عماد الدين رائف

حكايات كوندوروشكين

لبنان قبل قرن بريشة روسية

عماد الدين رائف



حكايات كوندوروشكين

لبنان قبل قرن بريشة روسية

من «قصص سورية» ١٩٠٨، و«قارع الأجراس» ١٩١٤،
للكاتب ستيبان سيميونوفيتش كوندوروشكين

دراسة وتعريب : عماد الدين رائف
لوحة الغلاف «حرمون» للفنان الروسي يفغيني لانسري
إخراج فني فؤاد مقداد
طباعة : المجموعة الطباعية
info@printingroup.com

طبع هذا الكتاب بدعم من : المهندس الأستاذ محمد بحر

الطبعة الأولى

1437 هـ / 2016 م

ISBN: 978-9953-76-806-9

Степан Кондурушкин. Рассказы. (Ливан век назад русским пером). [Перевод на арабский язык, предисловие и комментарии Имадеддина Раефа.] – Бейрут: Дар Аль-Муалеф, 2016. - 222 с.
В оформлении издания использованы иллюстрации из книг, хранящихся в Российской национальной библиотеке (Санкт-Петербург, Россия):
Сирийские рассказы /С. Кондурушкин; [Рис. Е. Лансере]. Т. [1]-2. - Санкт-Петербург : Знание, 1908-1910.
Звонарь. Рассказы Для ст. возраста /С.С. Кондурушкин; Рис. и обл. Д. Митрохина. - Москва : т-во И.Д. Сытина, 1914.
В снежных горах. Рассказы /Рис. И. Мрочковского; И. Кондурушкин. - Москва Ленинград : Гос. изд-во, 1930.

توزيع



هاتف: 823720 1 961+ بيروت - لبنان
info@daralmoualef.com

إهداء

إلى أمي الصابرة وأبي الكادح،
إلى زوجتي الحبيبة وأولادي الواقفين معي على ضفاف حضارتين،
وإلى كل الباحثين عن ضفاف جديدة...

مقدمة

ستيبان كوندوروشكين ابن عائلة من الفلاحين، أنهى دار المعلمين والمعهد التعليمي في مدينة قازان، أعدّ نفسه بشكل واع للعمل التربوي في الشرق، أمضى خمس سنوات في المدارس السورية، التابعة للجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الأرثوذكسية.

قصص ستيبان كوندوروشكين السورية، تعتبر ظاهرة غير عادية في الأدب الروسي لما قبل الثورة، عندما كانت منطقة الشرق الأوسط تتمثل في يوميات ومذكرات السياح والعلماء والحجاج إلى الأماكن المقدسة. إذ إنه لم يصبّ اهتمامه على وصف طبيعة وآثار لبنان، بل على الناس العاديين.

بقلب نقي وروح منفتحة انطلق الشاب كوندوروشكين في رحلة كتابة، مُعرضاً عن التكبّر أو الأحكام المسبقة، متقرباً من فهم السكان القرويين البسطاء أحياناً، ناظراً إلى الروس في الشرق بفكاهة أحياناً أخرى.. كأحد أبناء المنطقة، لا كروسي شبّ في روسيا الوسطى حاول سبر أغوار العواطف والمآسي البشرية بنَفَس شرقي العادات والزخرفات.

بعد عودته إلى روسيا، كانت في انتظار كوندوروشكين مهنة الكتابة الأدبية، وحياة سياسية اجتماعية نشطة، وخيبات أمل في المثل الثورية، وموت مأسوي في العام ١٩١٩.. ثم نسيان تام لجميع أعماله طيلة الحقبة السوفياتية.

اليوم، وبعد مرور أكثر من مئة سنة على صدور مجموعة «قصص سورية» في روسيا، يتم تقديم كوندوروشكين للمرة الأولى عربياً، وهي ترجمة أصيلة مع تعليق وتعقيب عماد الدين رائف، مزودة بالرسوم والزخارف التي رافقت الطبعات الأولى بالروسية، وهي لا تزين القصص فحسب، بل تنقل القارئ إلى أجواء مطبوعات مطلع القرن العشرين.

هذا الكتاب، عبارة عن تحية لكاتب ومعلّم روسي، قدم للقارئ الروسي قبل قرن، وللمرة الأولى، حياة الناس العاديين في لبنان وسوريا. الكتاب سيكون مثيراً لاهتمام القارئ العربي المعاصر، حيث يجد وجهة النظر الروسية تجاه لبنانيي مطلع القرن الماضي، الذين كما يبدو إلى الآن لم يتغيروا كثيراً.

تاتيانا كوفاشيفا – بحر

القسم الأول

حياة كوندوروشكين وأعماله

* خمس سنوات في الشرق
* الجمعية الفلسطينية
* المفتش التربوي
* الكاتب الصحافي
* جريدة لاحزبية
* مراسلات كوندوروشكين - غوركي
* النهاية المؤلمة

تقديم

لعل الإشارة العربية الوحيدة إلى ستيبان كوندوروشكين، ما ذكره الباحث ممدوح أبو الويّ عن أن مكتبة تولستوي تحفظ كتاباً بعنوان قصص سورية لكاتبه كوندوروشكين صدر في العام ١٩٠٨ [١]. ولا غرابة في ذلك، فحياة كوندوروشكين كناشط سياسي واجتماعي، وككاتب صحافي لاحزبي يدعو إلى اللاحزبية، في العقد الثاني من القرن الماضي عندما وصل تركز الأيديولوجيا إلى الذروة، ضمنت أن يغيب أي أثر له طيلة العهد السوفياتي[٢].

أما في روسيا الاتحادية الحديثة، فالقصة الوحيدة التي تُعاد طباعتها لكوندوروشكين، هي «قارع الأجراس»، التي كانت قد سُمّيت مجموعته القصصية باسمها في العام ١٩١٤، وهي قصة موصى بها تربوياً، لتلامذة الحلقة المدرسية الثالثة، ضمن القصص المطلوب قراءتها من قبل التلاميذ من خارج المنهج الدراسي. وأهميتها تكمن في قراءتها ليلة عيد الفصح، وفق العادات العائلية الروسية[٣].

اليوم، وبعد نحو قرن على الرحيل المأسوي للكاتب، باتت نسخ كتبه نادرة، وقد بادر بعض المثقفين لإعادة إحيائه على شبكة الانترنت في بعض المكتبات

---

١ . تولستوي ودوستويفسكي في الأدب العربي - دراسة تطبيقية في الأدب المقارن، د. ممدوح أبو الويّ (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ط١: ١٩٩٩) ص ١٥.

٢ . نشرت قصة «في جبال الثلج» لستيبان كوندوروشكين، ضمن مجموعة قصصية حملت الاسم نفسه بدون توقيعه، في ثلاثينات القرن الماضي، وزينت القصص برسم الفنان إغناتي كونستنتينوفيتش مروتشكوفسكي (موسكو - لينينغراد: الإصدارات الحكومية، ط١: ١٩٣٠).

٣ . صدرت الطبعتان الأخيرتان للقصة مزينتان بالرسوم في موسكو سنة ٢٠١٣ و٢٠١٥، بعنوان «قارع الأجراس فيديا - قصة للفصح»، من إصدارات «أخوية القديس إغناتي الستافروبولي»، و«رعية معبد الروح القدس المتجسد».

الروسية الإلكترونية، أما رحلة البحث عن سيرة حياة كوندوروشكين فليست سهلة، وكل ما هو مكتوب عنه كتعريف لا يتعدى بضعة أسطر، مصدرها ملخص ورد في «قاموس غرانات الموسوعي»[٤]، وتم تناقل أجزاء منه، جاء فيه:

ولد ستيبان سميونوفيتش كوندوروشكين في العام ١٨٧٤، في قرية ليبوفكا - مقاطعة سمارا، في عائلة فلاحين فقيرة. درس في المدرسة الابتدائية، وانتقل في العام ١٨٩١ إلى دار المعلمين في مدينة فولسك - مقاطعة ساراتوف، وبعد إنهائه العام الأول في المعهد بات معلماً قروياً.

في العام ١٨٩٥ التحق بمعهد قازان للتعليم، وما إن أنهى المعهد حتى انضم إلى الجمعية الفلسطينية ليعلّم في صفوفها ويعيش في سوريا وفلسطين بين العامين ١٨٩٨ و١٩٠٣. ومن هناك أرسل قصصه السورية إلى مجلة «روسكويه بوغاتستفو»[٥]، و«مير بوجي»[٦]، ومجموعة «زنانيه»[٧] وغيرها من دور النشر.

عاد إلى سان بطرسبورغ في العام ١٩٠٣ واستمع لثلاث سنوات إلى محاضرات في معاهد الحقوق وتاريخ اللغات. ثم سافر إلى سيبيريا، وتركيا، والأرض الجديدة، والصين. من كتبه، ج١: قصص سورية، سان بطرسبورغ ١٩٠٨: حرابة، المصيبة وحيدة، إنكليزية، شاهين هدلا، بنت البيدر، أكولينا في طرابلس، أبو مسعود، حفار القبور، عرفت عرفت!، مأساة خليل، كوكوكو،

---

٤ . قاموس رفاقية الأخوين أ. وإ. غرانات وك. (١٩١٠-١٩٤٨): قاموس بيبليوغرافي موسوعي في ٢٧٨٥٠ صفحة، يعتبر من أكبر الموسوعات الروسية العالمية مطلع القرن العشرين، شارك في تحرير مواده عدد كبير من العلماء والعاملين في الحقول المعرفية، بإشراف البروفيسور ف. جيليزنيوف، م. كوفاليفسكي، س. مورومتسيف، ك. تيميريازيف. بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ استمر صدوره عن «معهد غرانات البيبليوغرافي الروسي»، إلى المجلد ٥٣، ثم عن «الموسوعة السوفياتية»، إلى المجلد ٥٥، أما المجلد ٥٦ فلم يخرج من المطبعة.

٥ . «روسكويه بوغاتستفو» - الغنى الروسي: مجلة أدبية علمية روسية شهرية، طبعت في سان بطرسبورغ بين العامين ١٨٧٦ و١٩١٨.

٦ . «مير بوجي» - عالم الربّ: مجلة أدبية علمية روسية للتثقيف الذاتي، طبعت في سان بطرسبورغ بين العامين ١٨٩٢ و١٩٠٦.

٧. إصدارات «زنانيه» - المعرفة، أنشئت في مدينة سان بطرسبورغ في العام ١٨٩٨ بدعم من ك. بياتينسكي ضمن التيار الماركسي لنشر الأدب العلمي المادي، وقد انتقل م. غوركي إلى هذه الدار في العام ١٩٠٠.

مئذنتان، على حافة الصحراء. الجزء الثاني، قصص: موسى، بلا ضفاف، في شباك الشيطان، بقايا شمعة، في غلس الليل، قارع الأجراس، الدعابة، الواقع[٨].

إلا أن هذه النبذة التي يتم تداول أجزاء منها لم تف كوندوروشكين حقه، لاسيما وأنها كتبت قبل وفاته، ولم تتناول تفاصيل حياته في لبنان وسوريا، فكان لا بد من البحث. والصفحات أدناه محاولة للملمة ما ذكر عن كوندوروشكين في صحافة مطلع القرن الماضي، لعلها تصلح كبذرة تعتمد على الوثائق الأصلية لبناء بيبليوغرافيا كاملة للكاتب، خاصة إن تمكنتُ من الوصول إلى الملفين الموسومين باسمه في «الأرشيف الروسي الحكومي للآداب والفنون – رغالي»، في المقبل من الأيام.

وفي الواقع ما كان لهذا البحث أن يبصر النور لولا الجهود الكبيرة الذي قامت بها الباحثة الروسية اللبنانية تاتيانا كوفاشيفا بحر. انطلاقاً من حديثها بشغف عن ستيبان كوندوروشكين خلال اللقاءات الصباحية الأسبوعية شبه المنتظمة، ثم تزويدي بما توفر من المصادر والمراجع التي تناولت الكاتب وأعماله، ثم بصور عن الكتب المحفوظة في «مكتبة سان بطرسبورغ الحكومية»، وصولاً إلى مراجعة جملة من الملاحظات المتعلقة بالترجمة ومقارنتها بالأصل الروسي.

---

٨ . «قاموس غرانات الموسوعي – المؤشر البيبليوغرافي الروسي المعاصر ١٨٦١–١٩١١»، (موسكو: رفاقية أ. وإ. غرانات وك، ط١: ١٩١٢) ج ١١، ص ٦٠٩.

وقد كنت بالفعل قد تعرفت إلى كوندوروشكين من كتاب كوفاشيفا بحر «المدارس المسكوبية في لبنان»، فطبعتُ نسخة إلكترونية من كتابه «قصص سورية» على أمل أن يتسنى لي الوقت كي أشرع بترجمتها، أو الكتابة عنها، لكن تلك النسخة بقيت على مكتبي في الجريدة لثلاث سنوات ولم تسمح مشاغل التحرير سوى بمطالعتها بين حين وآخر. فللباحثة كوفاشيفا بحر الفضل الأكبر في التوجيه والمتابعة، ولها الشكر على التقديم لهذا الكتاب.

كما أخص بالشكر الصديق المهندس محمد بحر على دعمه الكبير لمشروع البحث والترجمة، والزملاء والأصدقاء عصام سحمراني، شوقي الحاج، ماري مارون عبدالله، حنان رحيمي، وكل من ساهم في سبيل صدور هذا الكتاب. أما إن وقع أي تقصير أو خطأ فهو مني، ولما كنت أعتقد أن رحلتي مع س. كوندوروشكين وحكاياته ستكون طويلة، وربما تمتد لسنين مقبلة، يسعدني أن أتلقى النصح والملاحظات على بريدي الالكتروني:

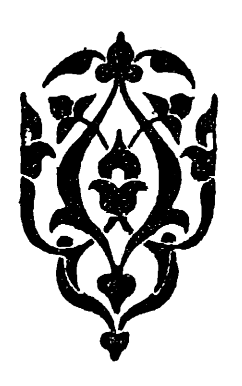
imadraef@hotmail.com

أو عبر التعليق على المدونة الخاصة بـ«حكايات كوندوروشكين»:

http://hikayatk.blogspot.com/

عماد الدين رائف

بيروت، تشرين الثاني ٢٠١٥



خمس سنوات في الشرق

تدور الأحداث الرئيسة لقصص كوندوروشكين، التي اخترناها لهذا الكتاب، ضمن حدود الجمهورية اللبنانية، أو لبنان الكبير بحدوده الحالية، لكنها دارت أيام كوندوروشكين ضمن ثلاث وحدات إدارية عثمانية، هي لبنان – أي متصرفية جبل لبنان، وولاية دمشق حيث المناطق الداخلية وراشيا وحاصبيا والبقاعان الغربي والشمالي، وولاية بيروت التي كانت تضم المدن الساحلية: طرابلس، بيروت، صيدا وصور.

وكان قد تم الاتفاق في العام ١٨٤٢ على أن تكون القائمقاميتان على أراضي جبل لبنان، أي السلسلة الغربية، بدون البقاع، على الرغم من أن أراضيه كانت في جزء كبير منها ملكيات لبنانية، وكذلك بدون وادي التيم الذي يعتبر مع حاصبيا وراشيا مهد الأمراء الشهابيين، ناهيك بالمدن البحرية التي أعرب أهاليها عن ممانعتهم الانخراط في الحياة اللبنانية على الرغم من انتظام العلاقات الاقتصادية التي كانوا يقيمونها مع أهل الجبل.

كما أن حدود لبنان لم تتغير مع المتصرفية[٩]، إلا أنها توسعت في العام ١٩٢٠، بموجب سلسلة من القرارات أصدرها المندوب السامي في سلطة الانتداب الفرنسي الجنرال غورو. فالقرار الأول ورقمه ٢٩٩، بتاريخ ٣ آب ١٩٢٠، فصل بموجبه الأقضية الأربعة: حاصبيا وراشيا والمعلقة (البقاع) وبعلبك، عن ولاية دمشق وألحقها «من حيث نظامها الإداري بالأراضي اللبنانية

٩ . انظر: التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ادمون رباط، ت: حسن قبيسي وإعداد جورج كتورة (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ط١: ٢٠٠٢) ج٢، ص ٣٤٩ وما بعدها.

ذات الحكم الذاتي». وعلل ذلك بـ «أن هناك ما يستوجب تلبية أماني الأهالي الذين عبروا عنها بملء حريتهم»، وذلك القرار لم يلحظ اعتراضات كثيرين أعربوا عن اعتراضاتهم على استلحاق أقضيتهم بلبنان.

وفي ٣١ آب، صدرت تباعاً ثلاثة قرارات أخرى، أولها رقمه ٣٢٠، ينص على حل المحافظة الإدارية لمدينة بيروت، بما في ذلك هيئاتها ومصالحها الإدارية المحلية. وكذلك حل المجالس الإدارية للألوية والأقضية التابعة لمدينة بيروت. أما القرار الثاني فرقمه ٣٢١، ويتعلق بحل المحافظة الإدارية لأراضي لبنان ذات الحكم الذاتي، بما في ذلك هيئاتها ومصالحها الإدارية العامة والمحلية، ومن بينها المجلس الإداري لمتصرفية جبل لبنان. والقرار الثالث، الذي حمل الرقم ٣١٨، فكان الأهم حيث عينت بموجبه أراضي الدولة اللبنانية، التي اشتملت على الدائرة الإدارية لـ «لبنان الحالي»، أي المتصرفية، بالإضافة إلى أقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا، والأجزاء المشار إليها من أراضي ولاية بيروت، أي لواء صيدا ما عدا ما ألحق بفلسطين بموجب الاتفاقيات الدولية، ولواء بيروت، وقضاء عكار بقسمه الواقع إلى جنوب النهر من لواء طرابلس، وقضاء طرابلس مع مديريتي الضنية والمنية.

وبذلك تكون حدوده من الشمال خط يمتد من مصب النهر الشمالي حتى نقطة التقائه مع روافد وادي خالد على مستوى جسر قمار، ومن الشرق خط المرتفعات التي تفصل بين وادي خالد ووادي نهر العاصي، ويتبع هذا الخط الحدود الشمالية لقضاء بعلبك باتجاه الشمال الغربي - الجنوب الشرقي، ثم الحدود الشرقية لأقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا. ومن الجنوب الحدود الفلسطينية على نحو ما يجري تحديدها في الاتفاقيات الدولية. ومن الغرب البحر المتوسط. تلك الحدود لم تتغير منذ رسمها الجنرال غورو، وقد استعاد الدستور اللبناني وصفها في مادته الأولى المتعلقة بحدود الجمهورية اللبنانية مستعملاً الصيغ والتعابير نفسها. وبالفعل باتت أحكام غورو سارية المفعول عشية الأول من أيلول ١٩٢٠، وهو تاريخ ولادة لبنان الكبير[١٠].

---

١٠ . انظر: التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ادمون رباط، - مصدر سابق ج٢، ص ٥٧٢ وما بعدها.

الجمعية الفلسطينية



الكاتب ستيبان كوندروشكين بعد عودته إلى سان بطرسبورغ.

ما إن أنهى ستيبان كوندوروشكين معهد التعليم في قازان سنة ١٨٨٨، حتى التحق بـ«الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية»[١١] بدعوة منها،

١١ . الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية أنشئت في العام ١٨٨٢ لمواكبة الحجاج الروس إلى الأراضي المقدسة، ولدراسة تلك النواحي، ومساعدة السكان المحليين، حيث افتتحت في فلسطين ثم سوريا ولبنان العديد من المدارس والمرافق الصحية. وأتى إنشاء الجمعية بعد زيارة حج الأمراء الروس سيرجيوس وبولس وقسطنطين إلى فلسطين في العام ١٨٨١، ولدى عودتهم إلى روسيا انتظم أصدقاء فلسطين في جمعية برئاسة سيرجيوس وعطف القيصر ألكسندر الثالث. انظر: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، أسد رستم (بيروت، المكتبة البوليسية، ط١: ١٩٨٨) ص ٢٢٤- ٢٢٥.

ووضع نفسه في خدمتها في الأول من آب / أغسطس من العام نفسه، وفي الرابع والعشرين منه تم إرساله إلى الخدمة في سوريا، فوصل إليها في ٧ أيلول/ سبتمبر. وقد حدث ذلك بعد سنة على افتتاح أولى المدارس المسكوبية في النطاق الجغرافي الحالي للبنان، حيث افتتحت في محلة المصيطبة البيروتية[١٢]، بتاريخ ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٨٨٧، على يد مؤسستها ومديرتها الدائمة ماريا تشيركاسوفا[١٣]، وبفضل جهودها افتتحت خمس مدارس أخرى في المدينة بين العامين ١٨٩٠ و١٩١٢ [١٤]. وقد اعتمدت تلك المدارس طرقاً تجريبية في تعليم اللغة الروسية، واعتبرت نموذجية.

وقد توافد إلى تلك المدارس مفتشو الجمعية الفلسطينية والرحالة والحجاج الروس، تاركين وراءهم مدونات وتقارير عن تشيركاسوفا وسير عمل المدارس. وفي العام ١٨٨٨ زار مدرسة تشيركاسوفا الأميران سيرغي ألكسندروفيتش ويليزيفيتا فيودروفنا رومانوف[١٥].

١٢ . أنشئت المدرسة في أحد المباني التي تشغلها سفارة روسيا الاتحادية في بيروت اليوم.

١٣ . ماريا ألكسندروفنا تشيركاسوفا: من مواليد محافظة نوفغورد، ابنة عائلة من النبلاء، كرست نفسها للتربية، فقامت في سبعينات القرن التاسع عشر بفتح مدرسة في ملكيتها الخاصة في منطقة بوروفيتشك لتدريس ابناء الفلاحين المحليين، وتطوعت في سبيل ذلك لسنوات. قبل وصولها إلى بيروت عملت ضمن الإرساليات الارثوذكسية في اليابان لثلاث سنوات، وعادت بقرار طوعي مارة بالأراضي المقدسة، حيث التقت بسكريتير الجمعية الفلسطينية ن. خيترفو

١٤ . استمرت المدارس في عملها حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٤، فبعد انطلاقة شرارة الحرب العالمية الأولى، والأعمال الحربية بين روسيا القصيرية والسلطنة العثمانية تسلمت الهيئات الكنسية المحلية إدارة المدارس من الجمعية.

١٥ . الأمير الكبير سرغي ألكسندروفيتش رومانوف (٢٩ نيسان/ أبريل ١٨٥٧ - ٤ شباط / فبراير ١٩٠٥) الابن الخامس للقيصر ألكسندر الثاني، كان حاكماً عاماً لمقاطعة موسكو، زوجته الأميرة يليزافيتا فيودروفنا أو إليزابيت أميرة هيسن والراين (١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٦٤ - ١٨ تموز/ يوليو ١٩١٨) الابنة الثانية لدوق الراين لودفيغ الرابع. ورحلة الحج المشار إليها تضمنت إلى القدس، زيارات إلى بيروت وبعلبك والشام وحيفا وقانا الجليل.

وقد تعاونت الجمعية بشكل كبير مع الكنيسة الأرثوذكسية في تسعينيات القرن التاسع عشر، وبطلب من بطريرك أنطاكيا انتقلت إدارات عدد من المدارس الريفية إلى الجمعية، ففي العام ١٩٠٥ غدت نحو ٤٠ مدرسة في عهدة الجمعية، ١٦ منها خضعت لمديرية التفتيش السورية الشمالية (طرابلس وحمص وعكار)، و١٩ منها للمديرية الجنوبية (زحلة وصور وصيدا وبيروت)، أما مدارس تشيركاسوفا فتمتعت بالاستقلالية. وكان مفتشو المديريات يشرفون على العملية التربوية ويوجهون المعلمين ويهتمون بتأمين الموارد المالية للمدارس، وينشئون العلاقات مع الإدارات المحلية للسلطنة من جهة، والرئاسات الروحية للكنسية الأرثوذكسية المحلية من جهة أخرى[١٦]. وقد تضمنت مهمات المفتش وضع التقارير بعد زيارة المدارس. بالإضافة إلى ذلك، كانت الجمعية ترسل مربين يتمتعون بالخبرة الطويلة في العمل التربوي، كما حدث في العام ١٨٩٩، حين زارت بعثة تفتيشية كبيرة فلسطين وسوريا ولبنان، كان في عدادها عضو الجمعية نيقولاي أنيتشكوف، الذي نشر تقريراً بعنوان «المؤسسات التعليمية والطبية للجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الأرثوذكسية في سوريا وفلسطين»، مضمناً إياه عشرات الصور التي التقطها المصور الدمشقي حبيب هواويني، المرافق للبعثة[١٧].

---

١٦ . عزا أسعد داغر النجاح السريع والانتشار الواسع للمدارس الروسية في سوريا وفلسطين إلى أربعة أسباب: القدرة والنفوذ وعطف القيصر، مجانية التعليم، العلاقة الجيدة بين الجمعية والطائفة الأرثوذكسية المحلية ورؤسائها الروحيين، وطرق التعليم النموذجية. انظر: المدارس الروسية في سوريا، مجلة المقتطف، أسعد داغر، عدد تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٠١، ص ٩٠١ وما بعدها.

١٧ . المدارس المسكوبية في لبنان ١٨٨٧ -١٩١٤، تاتيانا بحر وبيوتر فيدوتوف (بيروت وسان بطرسبورغ: المتحف الحكومي للتاريخ الديني، ط١: ٢٠١٢) القسم الأول.

المفتش التربوي

استلم ستيبان كوندوروشكين مهمات مساعد المفتش التربوي للمدارس السورية الجنوبية التابعة للجمعية في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٢، بموجب قرار مجلس الجمعية لمدة عام واحد، طلب من المجلس بعده إعفائه من مهماته للعودة إلى روسيا.

ويحدثنا المفتش التربوي لتلك النواحي، بين العامين ١٨٩٩ و١٩٠٥، دميتري بوغدانوف[١٨] بالتفصيل عن عمل المفتش في تقريره، يقول: «كي تتمكن من تغطية المدارس لمرة واحدة تحتاج إلى ٤٦ يوم عمل، عليك خلالها أن أتقطع مسافة تمتد إلى ١٨٢ ساعة، كما عليك خلال تلك المدة أن تستمع إلى ١٢٠ ساعة من دروس تلك المدارس بمعدل درس واحد لكل معلم، والتحدث إلى السكان المحليين عن أوضاع المدارس وإعطاء التوجيهات والتوضيحات للمعلمين والعاملين، وحل التعقيدات التي تبرز هنا بشكل دائم. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن عشرين يوماً في الشهر تنفق على الحسابات وتوزيع وإرسال الأموال، وتحليل المعطيات التي يقدمها المعلمون، فعليك أن تضطر إلى زيادة مدة زيارة المدارس إلى أربعة أو خمسة أشهر إضافية. وتتوجب ملاحظة الوقت المخصص لأمور أخرى كالبريد، والتدقيق في موجودات المدارس، وتزويدها باللوازم، وإجراء الجردات، مما يبقي وقتاً ضئيلاً جداً للقيام بالزيارات الواجبة واللقاءات، والتنعم بفترة الأعياد. ويجب أن تضيف إلى ذلك الجهد الجسماني والفكري المبذولين في السفر لمدة تتراوح بين ١٢ و١٥ يوماً وقد تتخلله أحياناً كثيرة انطباعات غير سارة أبداً، ما قد يطرحك ليومين أو ثلاثة في الفراش ويحرمك لأيام عديدة من استيعاب الأمور ويفقدك فرص القيام بأمور كثيرة خلال تلك الفترة».

---

١٨ . دميتري فيودروفيتش بوغدانوف: عضو فاعل في الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الأرثوذكسية، خريج أكاديمية اللاهوت في قازان، عمل في خدمة الجمعية منذ العام ١٨٩٤، وشغل منصب مفتش المدارس السورية الجنوبية بين العامين ١٨٨٩ و١٩٠٥. المعلومات الواردة في النص مصدرها تقريره: مدارس الجمعية الأمبراطورية الفلسطينية الأرثوذكسية في سوريا الجنوبية - تقرير ١٩٠١/١٩٠٢ (سان بطرسبورغ: إصدارات الجمعية، ط١: ١٩٠٢) ص ص ٣٢ - ٣٩.

ويشير بوغدانوف إلى العملية التربوية في المدارس حيث تركز اهتمام التفتيش على توزيع العاملين في المدارس بطريقة تمكن القوي منهم من جذب الآخرين الأكثر ضعفاً خلفه كمثال، ويعرض لعدم قدرة التفتيش على التأثير في جميع العاملين في المدارس بشكل مباشر، حيث عمل بشكل أساسي مع المعلمين والمعلمات الأكثر قدرة، لتحسين أداء المدارس من خلالهم، من دون أن يقوم بإرشادات عامة سواء في ما يتعلق بالأنظمة الخارجية للمدرسة أو في ما يخص العملية التربوية. ويرى أن مبدأ استقلالية المعلمين بعضهم عن بعض غير مفيد للمدارس حيث نسبة ٩٥ في المئة منهم لم يتم تحضيرهم بشكل جيد ولا يتمتعون بالكفاءة المطلوبة، بينما ليست وسط المعلمات سوى معلمة واحدة في دمشق ذات إعداد جيد.

يمكننا من خلال هذا الجزء من التقرير، الذي أعد قبيل وصول كوندوروشكين إلى المديرية، تخيل المهمات التي ألقيت على عاتقه حين غدا مساعداً لبوغدانوف بعد عمله معلماً في مدرسة مشغرة. ولا بد أن بوغدانوف اعتبر جهود كوندوروشكين مساعدة كبيرة له، حيث يشيد به حيناً ويشير إليه أحياناً. وتمكننا رسائل بوغدانوف من الاطلاع عن قرب على الظروف التي أحاطت بعمل كوندوروشكين كمساعد مشرف على المدارس.

ويمكننا تلمس إضاءات في رسائل بوغدانوف، قد يجد القارئ صداها في حكايات كوندوروشكين المختارة، إذ يضيف «تراقب السلطات المحلية هنا (في دائرة راشيا[١٩]) مدارس الجمعية بحذر مضاعف، وتحاول أن تضع العراقيل

١٩ . ضمت دائرة راشيا مدارس: راشيا الوادي، راشيا الفخار، الكفير، مشغرة، وعيتا الفخار.



DAMASCUS

ستيبان كوندروشكين مع أحد المدرسين العرب في دمشق.

أمام توسع نشاطها. فلماذا تنظر تلك السلطات، المتغاضية عن مسائل أخرى، بهذه الغيرة والاهتمام إلى انتعاش الأرثوذكسية في دائرة راشيا؟ أما السبب الأساسي وربما الوحيد في مواجهة الروم الكاثوليك المحليين الذين أنشأوا في هذه المناطق عشاً لهم، ولم يلق نشاطهم حتى الآن أي معارضة. وتقوم مدارس راشيا ضمن ظروف جيدة.

يضيف بوغدانوف في تقريره «وعدا عن اهتمامات المفتشية العادية بأمورها تستأنس المدارس بإشراف ومراقبة س. كوندوروشكين، وهو شخص ذو إعداد تربوي جيد من معهد المعلمين في قازان، وهو مفيد جداً في نشاطنا التعليمي. وهو الأوروبي الوحيد منذ ثلاث سنوات في تلك الأصقاع. ويتحمل جيداً أعباء الفترة الأولى من إنشاء المدارس. وعلى العموم فإن التعليم والتربية في مدارس المنطقة يسيران بشكل جيد ويتطوران بسرعة. غير أن الأمور ليست سوية بعد في ما يخص أقسام الإناث في المدارس. فقليلات جداً هن المعلمات اللواتي يوافقن على المجيء إلى هذه المناطق البعيدة للعمل. وحتى الموجودات منهن لا يتمكن من العيش جيداً في تلك الأنحاء فيبدأن بالتململ ومن ثم يتركن الخدمة. أما المعلمات المحليات فهن قليلات جداً وسرعان ما يتزوجن. ولهذه الأسباب تجب الاستعانة بالمعلمين وتحويلهم إلى راشيا أكثر من أي مكان آخر في المفتشية».

وعند تناوله لعمل المدارس، يقول بوغدانوف بشأن مدرسة راشيا التحتا «إن قسم الذكور في المدرسة يحتل أربع غرف من المبنى الذي تعود ملكيته للوقف، أما قسم الإناث وفيه عدد لا يقل عن الذكور فهو في مبنى مستقل مؤجر من قبل الأهالي. وهذا القسم ضيق وغير مريح، ولكن لا يوجد مبنى أفضل منه حتى الآن. ونحن مضطرون إلى انتظار انتقال الذكور إلى المبنى الجديد الذي يتم تشييده... أما اللغة الروسية فتسير بطريقة نظرية بشكل أساسي، والأولاد يقرأونها بشكل جيد ويكتبونها بشكل مرتب. ويلاحظ نقص في المحادثة بالروسية، والإنشاد غير منتظم بسبب وقفه على صحة المعلم س. كوندوروشكين، ولكن الأولاد قادرون على إنشاد المطلوب، مثل النشيد الروسي

ووطننا بصوتين، وغير ذلك من الأناشيد». وفي راشيا الفوقا «عدد التلامذة قليل والمعلمون أكثر بساطة، والتعليم فيها يسير بنجاح أقل، على الرغم من سيره بشكل موازٍ في المدرستين كلتيهما. وتثير المدرسة انطباعاً عاماً أنها موجهة بشكل جيد وتملك إمكانات التطور والتحسن».

ويشرح كذلك عن مدرسة مشغرة، وهي البلدة التي خدم فيها كوندوروشكين الفترة الأطول في التعليم، يقول بوغدانوف تخدم المدرسة «٤٠ عائلة انتقلت من اللاتينية إلى الأرثوذكسية. وبالرغم من تحذير رجال الدين من طائفة الروم الكاثوليك لها بحرمانها من الكنيسة، يدرس في المدرسة بعض التلامذة من تلك الطائفة برضى أهلهم. وليس للأرثوذكس هنا كاهن أو كنيسة، ويبقى الأولاد فترة طويلة من دون عمادة، أما العجائز فيموتون بلا اعتراف أو مناولة. ولم يلق اقتراحي للأهالي بإيجاد كاهن - معلم محلي منهم أي صدى، ليأخذ مكان مساعد المعالم الشاغر أي جواب، لعدم وجود الشخص المناسب.

ذلك ولا تملك المدرسة مبنى خاصاً بها، ونحن مضطرون لتقبل مساوئ المزرعتين المؤجرتين وغير المناسبتين للدروس. وبفضل قرب المسافة لتسيير أعمال المراقبة (تبعد مشغرة أربع ساعات ونصف الساعة على الجواد من راشيا)، وتعيين معلمين جيدين وكفوئين قد مارسوا المهنة في مدارسنا، فإن العمل في مدرسة مشغرة المكونة من صف واحد يتم بشكل مقبول. واللطيف في الأمر أنه بما أن الكنيسة غير موجودة في القرية فإن المعلم يقوم في فترة الأعياد بجمع التلامذة وينشد معهم التراتيل. وفي هذه المناسبات ينظم إلى التلامذة بعض الأهالي[٢٠]. ويعتمد بوغدانوف في تقريره عن مشغرة بالكامل على كوندوروشكين، حيث لم تتسن له زيارتها، كما يقول في تقريره للعامين ١٩٠١ و١٩٠٢.

٢٠ . المدارس المسكوبية في لبنان ١٨٨٧ -١٩١٤، تاتيانا بحر وبيوتر فيدوتوف - مصدر سابق. القسم الثاني.

الكاتب الصحافي



كوندروشكين مع زوجته *يليزافيتا* ريبنر في دمشق.

في العام ١٨٩٩، أرسل كوندوروشكين إحدى قصصه الأولى بعنوان «قصة ربيعية» إلى إدارة تحرير مجلة «روسكويه بوغاتستفو». وبتاريخ ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٩٩ سطر ناشر المجلة ف. غ. كورولينكو[٢١] رسالة إلى كوندوروشكين بعد قراءته لمخطوط القصة، جاء فيها: «... لِمَ لا تحاول أن تعرف القراء بخصائص الحياة المحيطة بك حيث أنت؟ اكتب بشكل أدبي جميل عن الحياة، مدوناً ملاحظاتك الناتجة عن المراقبة، إنها مدرسة رائعة في الكتابة».[٢٢]

---

٢١ . فلاديمير غلاكتيونوفيتش كورولينكو (١٨٥٣-١٩١٢) كاتب روسي من أصول أوكرانية بولونية، صحافي وناشر. نشط في مراحل روسيا القيصرية والحرب الأهلية الروسية. (القاموس الروسي للأعلام).

٢٢ . رسائل مختارة، ف. غ. كورولينكو (موسكو، ط١: ١٩٣٦) م ٣ ص ١٩٠.

وقد اتبع كوندوروشكين نصيحة كورولينكو. وبين العامين ١٩٠١ و١٩٠٦ نشرت «روسكويه بوغاتستفو» قصص كوندوروشكين التي شكلت مجموعة «من التجوال في سوريا». وبعد عودة كوندوروشكين إلى الوطن في العام ١٩٠٣، انخرط بكليته في العمل الكتابي الأدبي. وفي العام ١٩٠٧ بدأ يتفاوض مع الناشر لنشر مجموعته القصصية الأولى في إصدارات «زنانيه». وكان ماكسيم غوركي[٢٣] المطلع على ما يتم نشره في المجلات الأدبية قد لاحظ أعمال كوندوروشكين قبل أن ترسل إليه الدار مخطوط الكتاب لمراجعته.

وبعد قراءته وافق أن يُنشر الكتاب في «زنانيه». وقد ظهرت أول مجموعة قصصية لكوندوروشكين في العام ١٩٠٨ بعنوان «قصص سورية». وفي العام نفسه طبعت له «زنانيه» قصة «موسى»، وفي العام التالي قصة «في ليلة مشمسة»، ثم مجموعة نصوص كتبها في أوقات مختلفة جمعها في كتاب حمل عنوان «قصص».

والملفت في النصوص التي عمل عليها كوندوروشكين، وشكلت مجموعة «من الترحال في سوريا» بثه المشهدية في النص، وكأنه يعمل على نص سينمائي، مصوراً اللحظة والمحيط والحدث، مشاركاً القارئ الانفعالات الناتجة عن حدث ما هنا أو مشهد طبيعي هناك. وقد أسست سينمائية النص مقرونة بالدقة في تناول المشاهد والمشاعر، لجولاته الصحافية المتعددة في روسيا وخارجها في سنوات عمله التالية، منتجاً عدداً كبيراً من الكتب والتحقيقات.

تروي يليزافيتا كوندوروشكينا[٢٤] عن عمل زوجها وتجواله في روسيا وراء تحقيقات صحافية نشرها في جرائد عدة، تقول: لقد كان زوجي دقيقاً للغاية،

٢٣. ماكسيم غوركي اسم اشتهر به الكاتب الروسي السوفياتي الكبير ألكسي ماكسيموفيتش بيشكوف (١٨٦٨-١٩٣٦)، وهو أديب ماركسي، يعتبر مؤسس المدرسة الواقعية الاشتراكية المجسدة للنظرة الماركسية إلى الأدب.

٢٤ . فستنيك ليتيراتوري» - بشير الأدب، العدد ١٩١٩/٩، ي. كوندوروشكينا، مقالة بعنوان «س. كوندوروشكين - ذكرى زوج كانون الثاني/ يناير ١٩١٩»، ص ص ١٣-١٤.

دائم التأهب وذا أعصاب حامية. لم يدع أمراً يفوته، وكان يدقق في تفاصيل كل حادثة على حدة، راغباً في الإلمام بها. وكان يسعى جهده أن يتابع الأدلة في مكانها وهي ساخنة، وأن يعيش تلك اللحظات التي تعجبه.

في فترة الحرب اليابانية[٢٥]، سافر ستيبان سيميونوفيتش إلى الشرق بصفته موظفاً عسكرياً. ويصدف أن تم تنظيم إضراب، ونتيجة ملاحظته واهتمامه، ينتج قصته «الإضراب»، التي خصص لها بعدذاك كتاباً منفصلاً.

كما كتب قصة عن الحياة العسكرية بعنوان «الجذوة». وفي أيام المجاعة، جال ستيبان في بلاد حوض الفولغا وتشارك انطباعاته مع قراء جريدة «ريتش»[٢٦]، وبعد معرفته بانتشار الطاعون توجه متطوعاً إلى أماكن ذلك الوباء. وعندما أثيرت «قضية بيليس»[٢٧] توجه ستيبان إلى كييف، وهناك لم يقف على وصف انطباعاته فحسب، بل تعرض إلى كل ما لابس القضية من ظروف وألم بشخصياتها وعالجها، ما جذب انتباه إدارة المراسلين في صحيفة «بيرجيفيي فيدوموستي»[٢٨].

---

٢٥ . الحرب الروسية ـ اليابانية: اندلعت الحرب بين الإمبراطوريتين من ٨ شباط/ فبراير ١٩٠٤ حتى ٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٥، بدأت الحرب بهجوم ياباني مباغت على الأسطول الروسي المتمركز في ميناء «بورت آرثر» في «منشوريا»، الذي كان تحت سيطرة القوات الروسية، وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة بورتسموث. وتعتبر الخسائر البشرية الكبيرة للحرب من الأسباب غير المباشرة لاندلاع الثورة الروسية.

٢٦ . «ريش» – الحديث: جريدة يومية سياسية اقتصادية أدبية روسية، صدرت في مدينة سان بطرسبورغ بين العامين ١٩٠٦ و١٩١٧.

٢٧ . دعوى جنائية جرت جلساتها القضائية بين ٢٣ أيلول/ سبتمبر و٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٣. وقد حازت على ضجة كبيرة في الصحافة الروسية، اتهم فيها اليهودي مناحيم مندل بيليس بقتل تلميذ معهد كييف الروحي أندريه يوشينسكي (١٢ عاماً) بطريقة طقسية في ١١ آذار/ مارس ١٩١١، وكان التلميذ يدرس في السنة التحضيرية.

٢٨ . «بيرجيفيي فيدوموستي ـ أخبار البورصة: جريدة يومية سياسية اقتصادية أدبية روسية، صدرت في سان بطرسبورغ بين العامين ١٨٦١ و١٩١٧، أقفلت بسبب اتهامها بالترويج للدعاية المناهضة للسوفيات.

وعلى الساحة الاجتماعية ظهرت شخصية إليادور[٢٩]، فما كان من الكاتب إلا أن أبدى اهتمامه به وبمذهبه الذي لاقى انعكاسات ساطعة في كتاباته. فروحه العطشى كانت تبحث عن كل جديد وتعكسه في انطباعات.

كانت رحلات ستيبان سيميونوفيتش جولات انثروبولوجية اجتماعية، وتنوعت أبحاثه من صناعة الورق، إلى محطات ضخ المياه، والتلغراف، والفبارك والمصانع، وكان يدوّن ملاحظاته بأشكال صحافية وأدبية مختلفة ويتشاركها مع قرائه[٣٠].

وفي أحد الصباحات المشرقة، كما تقول كوندوروشكينا، فكر زوجي في رحلة إلى «الأرض الجديدة»[٣١] ليتعرف إلى الحياة الطبيعية البدائية، ليقضي هناك صيفاً كاملاً مدوناً وواصفاً مشاهداته التي ضمنها في كتابيه «بلا ضفاف» و«الليلة المشمسة». لقد كان بالفعل قد تعود على التضحيات الجسام.

وتورد الخبر جريدة «زاريا»[٣٢]، تحت عنوان «وصول كوندوروشكين إلى أرخانغلسك»[٣٣]، وجاء فيه: وصل الكاتب الشهير كوندوروشكين، منتصف تموز/ يوليو وسيتوجه إلى الأرض الجديدة - براباشويا غوبا، مرافقاً بعثة رفاقية التعدين.

---

٢٩ . اليادور: سيرغي ميخائلوفيتش تروفانوف اسمه الكهنوتي اليادور (١٨٨٠-١٩٥٢)، من قوزاق الدون، رجل دين وناشط روحي وسياسي روسي. أثار جدلاً في الأوساط السياسية والروحية الروسية في العقد الأول من القرن الماضي بشأن آرائه، فمنع السينودوس كتبه في العام ١٩٠٨، إلا أنه رفع الحظر عنه عبر علاقاته بغريغوري راسبوتين المقرب من قصر القيصر، ثم ما لبث أن اصطدم مع راسبوتين نفسه فأصدر عنه كتاباً في العام ١٩١٧ بعنوان «الشيطان المقدس»، وذلك بعد سنة تركه البلاد نحو الولايات المتحدة الأميركية حيث أمضى بقية حياته.

٣٠ . «فستنيك ليتيراتوري» - بشير الأدب، العدد ١٩١٩/٩، ي. كوندوروشكينا - مصدر سابق، ص ص ١٣-١٤.

٣١. «الأرض الجديدة» مصطلح تم التعارف عليه لأرخبيل في المحيط المتجمد الشمالي، شمال روسيا وأقصى شمال شرق أوروبا، عند راس زهيلانيا. تزايد الاهتمام العلمي بها مطلع القرن العشرين، حيث قام برحلات إليها الفنان الشهير ألكسندر بوريسوف، ونفي إليها في العام ١٩٠٣ الكاتب والرسام سيبان بيساخوف. وفي العام ١٩٠٩ نظم بعثة إليها المستكشف القطبي فلاديمير روسانوف بالتعاون مع غريغوري باسبيلوفي. وفي العام ١٩١٠ رفع صليب يحدد أقصى حدود الأمبراطورية الروسية شمالاً في أبعد نقطة من الأرخبيل.

٣٢ . «زاريا» - الفجر: جريدة يومية اجتماعية سياسية أدبية روسية، صدرت في مدينة أومسك بين العامين ١٩١٧ و١٩١٩، بمعدل ١٢ ألف نسخة في اليوم.

٣٣ . «زاريا» - ١٣ تموز/يوليو ١٩١٢.

وكذلك اهتم ستيبان سيميونوفيتش بعالم الأطفال، فخصص قصصاً لهم نشرها في مجلة «تروبينكا»[٣٤]، ثم طبعها في كتاب حمل عنوان «قارع الأجراس»[٣٥]. وإلى جانب ذلك نشر عدداً من الكتب، منها، «قصص سورية»، وقصص مختلفة، «في أثر الحرب»[٣٦]، «الراهب»، وغيرها. وترجم ستيبان من العربية قصة للأطفال[٣٧].

---

٣٤ . «تروبينكا» - الدرب: مجلة روسية للأطفال، صدرت في مدينة سان بطرسبورغ، عن دار تحمل الاسم نفسه، بين العامين ١٩٠٥ و١٩١٢.

٣٥ . «زفونار» - قارع الأجراس، س. كوندوروشكين - قصص للتلامذة الأكبر سناً (موسكو: مكتبة تروبينكا بإشراف ب. سولوفييفا وم. ماناسيينا - إصدارات رفاقية إ. د. سيتين، رسوم وغلاف: د. ميتروخين، ط١: ١٩١٤).

٣٦ . في أثر الحرب: ملامح الحرب الأوروبية العظمى (آب/ أغسطس ١٩١٤ - آذار/ مارس ١٩١٥)، س. كوندوروشكين (بتروغراد: إصدارات مجموعة الكتَّاب، ط١: ١٩١٥).

٣٧ . هي ترجمة الباب الأول من كتاب «كليلة ودمنة» - باب الأسد والثور، عن العربية بقلم س. كوندوروشكين، صدرت كقصة للأطفال في بتروغراد سنة ١٩١٨، عن إصدارات أوغنيوك. وكانت قد سبقت الترجمة الكاملة للكتاب بقلم إ. كوزمين ومشاركة المستشرق ا. كراتشكوفسكي، التي صدرت بطبعتها الأولى سنة ١٩٣٤ وبطبعتها الثانية سنة ١٩٥٧. انظر: كليلة ودمنة - ترجمة عن الفارسية، تعليق ب. شيدفار (موسكو: دار خودوجستفينايا ليتيراتورا، ط١: ١٩٨٦) حاشية ص ٨.

جريدة لاحزبية

رأس ستيبان كوندوروشكين تحرير جريدة «زيمليا» اليومية غير الحزبية، التي صدر منها ١٣٠ عدداً في بتروغراد من ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩١٧ إلى ١١ كانون الثاني/ يناير ١٩١٨ [٣٨]. تقول يليزافيتا كوندوروشكينا: اقترحوا على ستيبان سيميونوفيتش إصدار جريدة موجهة للشعب. وقد انخرط بكل حواسه وروحه في تلك الفكرة. لقد كان لجريدة «زيمليا» فرصة انتشار واسع، لكنها أقفلت، فتأثر ستيبان سيميونوفيتش كثيراً بذلك. فقد خسر إمكانية متابعة عمل يعشقه، كان قد صرف عليه كل طاقته وقوته، ومنحه دقات قلبه كلها[٣٩].

ولعل رحلات كوندوروشكين في الأراضي الشاسعة للأمبراطورية الروسية، وخاصة تلك التي جال خلالها في قرى مقاطعة سمارا، التي أنتجت كتاب «الطوفان – مقالات كتبت بعد ثورة فبراير ١٩١٧»، هي ما دفع كوندوروشكين إلى نشر صحيفة يومية يتوجه عبرها إلى الناس العاديين، الذين لا يفهمون ما يحدث في البلاد. ويقول كوندوروشكين عن ذلك في افتتاحية العدد الأول من الجريدة «إن أصعب شيء في روسيا هو العثور على جريدة شعبية تتوجه إلى قارئ عادي. وإذا ما تم نشر أمر في الجرائد الكبرى فإن ذلك لا يقرأ في القرى. ومن الممكن طبع جريدة لسنوات طويلة، ويكون آلاف بل ملايين المواطنين الروس بحاجة إليها، ومع ذلك فإنهم لن يعرفوا بأمرها. لذلك عقدنا العزم أن نتحمل أعباء جساماً وأن نرسل الجريدة إلى أنحاء عدة من البلاد، وإلى مؤسسات وأشخاص مختلفين بدون أي مقابل، فقط كي يتعرفوا إلينا...

---

٣٨ . تحتفظ «المكتبة الوطنية الروسية» في سان بطرسبورغ بالأعداد الصادرة من جريدة «زيمليا»، بالإضافة إلى مطويات ومطبوعات كانت توزع معها مجاناً، ومنها كتاب «الطوفان»، و«القاموس التفسيري»، المشار إليهما في المتن..

٣٩ . «فستنيك ليتيراتوري» – بشير الأدب، العدد ١٩١٩/٩، ي. كوندوروشكينا – مصدر سابق، ص ص ١٢-١٤.

الكثيرون يبحثون عن جريدة مكتوبة بلغة روسية واضحة وصادقة. وهذه هي جريدة زيمليا غير الحزبية».

وقد صدرت الجريدة تحمل اسم س. كوندوروشكين وتوقيعه في أربع صفحات، ومعظم موادها الأخرى طبع غير موقع. وقد ظهر توقيع «إف. الراهب»، ومن المرجح أن يكون اسماً مستعاراً لكوندوروشكين نفسه. ففي العدد الخامس للجريدة نجده تحت قصة «الخديعة»، وهي من القصص العربية، ومن الواضح أنها له. وقد اعتمدت الجريدة لغة حوارية هادئة تبتعد عن النزاع المباشر، على الرغم من مناهضتها للبلشفية، وتحاول أن تشرح الأحداث في البلاد، وبين الأسطر كانت تظهر ملامح شخصية كوندوروشكين المربي والمعلم.

الجريدة استمرت في الصدور في العاصمة الروسية، رافعة شعار اللاحزبية، في زمن تميز بالأدلجة المباشرة، ووفرة المصطلحات الأجنبية الدخيلة، التي رأى كوندوروشكين أنها تضع حاجزاً بين المثقفين وعامة الشعب، فيما كان همّه الأساس تبسيط السياسة لتصل إلى عامة الناس. فكان أن عمل على جمع تلك المصطلحات المستغلقة على فهم القارئ العادي، وشرحها في «قاموس تفسيري»[٤٠]، ووزع القاموس مجاناً مع جريدته.

وتضيء مقدمة القاموس التي كتبها كوندوروشكين في حزيران/ يونيو ١٩١٧، على الحالة العامة في البلاد وهواجسه في تبسيط اللغة، يقول: لدى المثقفين الكتبيين عادة سيئة، وهي استخدام كلمات دخيلة بلا حاجة إلى ذلك. وتلك الكلمات تمنع الناس من فهم بعضهم البعض، يفهمها المثقفون والكتبيون

---

٤٠ . قاموس تفسيري – أداة مساعدة لفهم لغة الجرائد، س. كوندوروشكين (بتروغراد: جريدة «زيمليا»، ط١: ١٩١٧). يقع القاموس في ٢٩ صفحة.

وتفصلهم عن الشعب. بعض الكلمات الأجنبية دخلت إلى لغتنا الروسية بالفعل، تروّست، ما يجعل تغييرها غير ممكن... أما الكلمات الدخيلة فبمعظمها لا يحتاج إليها الحديث اليومي الحيّ، بل على العكس من ذلك فإنها توسّخه.

أمامنا اليوم عمل كبير وهو بناء الدولة. وهذا عمل يقع على عاتق الشعب. ولكي نقوم بهذا العمل علينا أن نتعلم الكثير من الناس المثقفين، وعلينا قبل ذلك أن نفهم حديثهم. في القاموس التفسيري جمعت وشرحت فقط تلك الكلمات التي لها علاقة مباشرة بالأحدث في أيامنا هذه. الكلمات التي يتكرر استخدامها في الجرائد والمطبوعات. علينا فهم هذه الكلمات وتتضمن معاني عميقة أحياناً، أما تلك المعاني فمن الأفضل أن تصاغ باللغة الروسية كي لا يحدث سوء فهم في اجتماعات القرى والبلدات، كي يفهم الجميع بعضهم البعض كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء.

مراسلات كوندوروشكين - غوركي[٤١]

تكشف مراسلات كوندوروشكين – غوركي بوضوح عن خطين متجاورين متقاطعين: الأول هو التوجيه الأدبي المباشر الذي كان يمارسه غوركي، والثاني إضاءة الكاتبين معاً على قضايا الساعة في الحياة الاجتماعية.

ومع نشر مجموعات كوندوروشكين القصصية في «زنانيه» عبّر غوركي عن أن الكاتب الشاب لم يكشف بعد عن مواهبه الأدبية والكتابية الكامنة. وكلما كان يقرأ نصاً جديداً لكوندوروشكين كان غوركي يلعب دور المعلم مانحاً إياه بعض الدروس في المهارات الأدبية، وكان كوندوروشكين يقبل ذلك بكل امتنان.

ومع ذلك تبدت شيئاً فشيئاً الاختلافات بين الكاتبين، خاصة في ما يتعلق بحركة التحرر الروسية، والقضايا القومية، ومكان الكاتب في الحياة المجتمعية. وبات النقاش بين غوركي وكوندوروشكين يتخذ طابعاً أكثر حدة إلى أن أدى في نهاية المطاف إلى القطيعة.

---

٤١ . مراسلات كوندوروشكين – غوركي بدأت في كانون الثاني/ يناير ١٩٠٨، أما آخر رسائل غوركي المعروفة إلى كوندوروشكين فيعود تاريخها إلى آذار/ مارس – نيسان/ أبريل ١٩١٢. وقد أنهى كوندوروشكين المراسلات برسالة من سان بطرسبورغ إلى جزيرة كابري بتاريخ ٣٠ كانون الثاني/ يناير – ١٢ شباط/ فبراير ١٩١٣.

وتعزو مقدمة المراسلات بين الكاتبين[٤٢] ذلك إلى أن إقامة كوندوروشكين في سوريا وفلسطين وانطباعاته عن الشرق الأدنى قد تركت أثراً كبيراً على وجهة نظره، فهناك كان بإمكانه أن يرسم لوحة زاهية عن تعايش وتناحر أتباع الأديان السماوية مع بعضهم البعض. وقد تكونت لدى كوندوروشكين فكرة ثابتة جداً عن الدين باعتباره شكلاً خاصاً من الوعي الشعبي. فالرغبة الأبدية لدى الناس في السعي نحو الحقيقة والعدالة والحرية، في رأيه، تعبر عنها الأساطير الدينية وتجد صداها فيها.

لذلك نجد أن قصة «موسى» كانت محل سجال طويل بين الكاتبين. القصة المستمدة من التوراة والتي تروي حكاية عبرانيين يجوبون الصحراء بحثاً عن أرض الميعاد، ظهّرها كوندوروشكين كأحد أشكال التعبير الرمزي. وقد شرح غوركي الإشكال من وجهة نظره في آذار/ مارس ١٩٠٨، بقوله «موسى غير المرئي كان يعيش في وعي أولئك الناس، وقد قادهم عبر الصحراء، أما موسى الملتحي فلم يكن سوى تجسيد لتلك الفكرة، أي للقوة». لكن كوندوروشكين، دفاعاً عن فكرته، لفت نظر غوركي إلى التشابه بين أزمات القرون المسيحية الأولى وأزمات العصر، «حيث تواجه الحياة البشرية أوجه القصور الحادة فيتكون لديها توق شديد إلى ضفاف جديدة».

واعتبر غوركي أن ذلك «التوق إلى ضفاف جديدة» قرّب كوندوروشكين جنباً إلى جنب مع «الباحثين عن الله»، إلى «المجتمع الديني الفلسفي» في سان بطرسبورغ. في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٨ كان كوندوروشكين في عداد المدعوين إلى ندوة حاضر فيها أ. بلوك و غ. بارونوف عن «اعترافات غوركي»، ثم بعدها بسنتين أصبح محاضر منبر «المجتمع» فتحدث عن «الإيمان الشعبي».

---

٤٢ . غوركي والأدب الروسي مطلع القرن العشرين – المراسلات غير المنشورة – التراث الأدبي (موسكو: إصدارات ناأوكا بالتعاون مع أرشيف غوركي، ط١: ١٩٨٨) الجزء ٩٦.

صيف ١٩٠٨، استلم غوركي قصة كوندوروشكين «على الطريق» التي عبّر فيها عن أنه يسعى من خلالها إلى تصوير نزاع النفس البشرية أثناء نضالها لفك ارتباطها بالناس. إلا أن غوركي رفض طبع القصة في اصدرات «زنانيه»، مبرراً ذلك بقوله: بالنسبة إلينا التشاؤم والشك وخلفهما مرض الروح، كلها أمور سابقة لأوانها.

في آذار/ مارس ١٩١٢، التقى كوندوروشكين برجل الدين اليادور، وسطّر مجريات اللقاء وانطباعاته عنه في رسالة أرسلها إلى غوركي. ولعل غوركي كان في تلك الفترة قد حسم أمره، معتبراً أن كوندوروشكين يلزم نفسه باتباع توجهات دينية محددة، خاصة وأنه كان يرى في اليادور «شعبوياً» يبحث عن مشاكل مع الكنيسة والإدارة المدنية، سواء بسبب أو بدونه، مظهراً إيمانه بالشعب المهمش والمنسي.

وجهة النظر تجاه الشعب، التي رأى غوركي أن إليادور ينطلق منها، بالتوازي مع تطلعات حركة التحرر الروسية، كانت غير مقبولة أبداً لديه. وأدى ذلك إلى تعقيد العلاقة بينه وبين كوندوروشكين، وفرض التشنج نفسه على المراسلات بينهما، لاسيما ما تناول منها النزعة الفردية والجماعية في المجتمع الروسي، إلى أن حدثت القطيعة بين الكاتبين[٤٣].

---

٤٣ . الحلقة الأخيرة من النزاع الفكري – السياسي بين الكاتبين، حدثت بعد انقطاع المراسلات ربيع العام ١٩١٦، عندما انتقد س. كوندوروشكين بشدة مقالة غوركي «روحان» المنشورة في دورية «ليتوبيس»، عدد كانون الثاني/ ديسمبر ١٩١٥، عبر مقالة بعنوان «العقل الغريب»، اعتبرها غوركي تهجماً عليه. انظر: «ريتش» العدد ١٢٠، ٣ أيار/ مايو ١٩١٦.

النهاية المؤلمة

حمل عدد تموز/ يوليو ١٩١٩ من مجلة «فيستنيك ليتراتوري» خبراً مفجعاً، نعت فيه إدارة تحرير المجلة ستيبان كوندوروشكين، جاء فيه: الأدب الروسي فجع بخسارة جديدة، عرفنا عبر عدد جريدة «بريامورسكايا جيزن» الواصل إلينا بالصدفة، أنه في مدينة أومسك، في كانون الثاني/ يناير الماضي، توفي بعد صراع طويل مع مرض عصبي عضال، كاتب «قصص سورية» الموهوب ستيبان سيميونوفيتش كوندوروشكين، عن ٤٥ سنة من العمر.

س. كونوروشكين ولد في عائلة فلاحين. انهى في العام ١٨٩٨ معهد التعليم في قازان، وبدعوة من «الجمعية الفلسطينية» توجه إلى فلسطين وسوريا، حيث أمضى خمس سنوات في التعليم إلى جانب كونه مساعداً للمشرف التربوي في سوريا. وخلال فترة وجوده في تلك البلاد، كتب كوندوروشكين عدداً كبيراً من الملاحظات والمشاهدات، ما خوله كتابة مجموعة «قصص سورية»، التي طبعت في «روسكويه بوغاتستفو» و«مير بوجي». قام كوندوروشكين بالكثير من الأسفار عبر الشرق، وفي روسيا، متعرفاً إلى التيارات الدينية والاجتماعية والسياسية وتوجهات الشعوب. وتنعكس ملاحظاته الغنية في أعماله الأدبية، فيرسم أمامنا معرضاً كاملاً، صورُه مستقاة من الحياة اليومية. القصص المحلاة بالشعر عن الحياة في الأرض الجديدة، طبعت في مجموعات «زنانيه». وفي جريدة «ريتش»[٤٤] طبعت أعماله عن رحلاته المثيرة، وتعليقاته على الموضوعات السياسية الاجتماعية. عطاء كوندوروشكين كان في قمة الإبداع، ورحيله المبكر يترك لدى كثيرين مشاعر الأسى[٤٥].

---

٤٤ . ريتش: جريدة يومية سياسية اقتصادية أدبية روسية، صدرت عن «الحزب الدستوري الديمقراطي» في مدينة سان بطرسبورغ بين العامين ١٩٠٦ و١٩١٧.

٤٥ . «فستنيك ليتيراتوري» - بشير الأدب، سان بطرسبورغ، العدد ٧/ ١٩١٩، ص ١٤.

ذلك الخبر وصل إلى زوجة ستيبان، يليزافيتا كوندوروشكينا[٤٦]، التي حررت مقالة[٤٧] تروي فيها الرحلة المأسوية الأخيرة للكاتب وتضيء على جوانب من حياته، تعتبر الوثيقة الأهم والأشمل عنه. تقول فيها: حمل «فيستنيك ليتيراتوري»، إليّ وإلى عائلتي خبر خسارة كبرى، بفقد ستيبان سيميونوفيتش كوندوروشكين الزوج والأب، الذي وصل إلى مدينة أومسك في كانون الثاني/ يناير من العام الحالي. في العام الماضي، ١٩١٨، عندما أغلقت كل الجرائد والمجلات، بقي ستيبان سيميونوفيتش بلا أي عمل، متروكاً لقدره.

كانت أوقاتنا عصيبة ملؤها الجوع. عاد زوجي يوماً من مبنى التحرير إلى البيت يائساً، واقترح عليّ مرافقته مع ابنتينا إلى مدينة سمارا، حيث الحياة أرخص، والأهم هو الحصول على الخبز.

في الثامن من آب/ أغسطس، تركنا بيتروغراد[٤٨] وكانت خطتنا تقتضي التوجه إلى ساراتوف، ومن هناك إلى مدينة نيكولايفسك. كان زوجي قد قرر نقل مكان إقامتنا إلى مسقط رأسه قرية ليبوفكا، في محافظة سمارا، على أن يتوجه إلى مدينة سمارا للبحث عن عمل، على أمل نقلنا إليها فيما بعد. كنا آنذاك في حال ترحال.

---

٤٦ . يليزافيتا فاسيلفنا كوندوروشكينا (ريبنر): خريجة معهد التعليم في سان بطرسبورغ، التحقت بـ«الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية» في الأول من أيلول/ سبتمبر ١٨٩٧ وباتت مديرة المدرسة التابعة للجمعية في دمشق سنة ١٨٩٩. تزوجت من كوندوروشكين أثناء خدمتهما في سوريا، وولدت له ابنتين: أنا في ٣ تموز/ يوليو ١٩٠٣، أي قبل مغادرته سوريا، وفالنتينا في ١٥ آب/ آغسطس ١٩٠٤، في سان بطرسبورغ.

٤٧ . «فستنيك ليتيراتوري» - بشير الأدب، العدد ١٩١٩/٩، ي. كوندوروشكينا، مقالة بعنوان «س. كوندوروشكين - ذكرى زوج كانون الثاني/ يناير ١٩١٩»، ص ص ١٣-١٤.

٤٨ . سميت مدينة سان بطرسبورغ باسم بتروغراد بين العامين ١٩١٤ و١٩٢٤، ثم باسم لينينغراد بين العامين ١٩٢٤ و١٩٩١، قبل أن تعود إلى اسمها الأول.

لكن حدث ما خرب كل خططنا، حين كنا قد دخلنا إلى مقاطعة ساراتوف. هناك كنا قد حصلنا على إذن بالتوجه نحو نيكولايفسك، لكن في الطريق قرب قرية ريمسكو كورساكوفكا توقف القطار. أعلمونا أن الجبهة تحولت إلى تلك المنطقة وأن السكك الحديدية مفككة. وقعنا في وضع لا نحسد عليه، على بعد فرست[٤٩] واحد من محطة القطارات توجد مزرعة، توجهنا إليها في انتظار عبور آمن. لكن الانتظار طال لنحو شهر. كنا في عزلة عن كل شيء، حيث لا رسائل ولا جرائد...

كان ستيبان سيميونوفيتش حزيناً لحظنا العاثر، وكان يبحث عن مخرج من الفخ الذي وقعنا فيه بشكل لا إرادي. وبالصدفة، علم أن المخرج الوحيد هو السفر بركوب الخيل. اشترى ستيبان سيميونوفيتش حصانا وعربة، وانطلقنا في طريقنا، لكن زوجي قرر عدم الاستعانة بخدمة الحوذي. وتحت تأثير حوادث الطرق، والمحن التي مرّ بها، بدأت طاقة الرجل الذي لا يعرف الكلل بالتهاوي، بات شديد التوتر ثم مرض. وفي تلك الأثناء، كانت مؤننا وأموالنا تتناقص شيئاً فشيئاً. في ناحية بوزولوك، تركنا ستيبان سيميونوفيتش وحدنا مؤقتاً، وسافر وحيداً على الرغم من مرضه وحزنه، ليبحث عن عمل.

بعد شهر على عيشنا في بوزولوك، توجهنا إلى مدينة سمارا، وانتظرنا بفارغ الصبر عودة رب العائلة. لكن لم يأتنا أي خبر. فكان علي العودة إلى بيتروغراد، للاستعلام من المعارف عن مصير سيتيبان سيميونوفيتش الذي اعتبر في عداد المفقودين. لكن لم أحصل على أي معلومات.

ومر عيد الميلاد، وتلاه الفصح، وأتى تموز/ يوليو، ولا خبر عنه. وفجأة، وبمحض الصدفة، أعرف بموت ستيبان سيميونوفيتش غير المحدد التاريخ. وكنت فعلاً قد استنفذت أعصابي آنذاك، وللحسرة مات ستيبان سيميونوفيتش ولم يشاركنا المواد الغنية التي كانت في حوزته.

---

٤٩ . فرست: وحدة قياس روسية قديمة تساوي ١.٠٧ كيلومتر.

فالتوتر الذي رافق الفترة الأخيرة من رحلتنا المشؤومة، ووحدته، أطاحا صحته. ويبدو أن شعوراً خفياً كان لديه بأنه كان ينهي رحلته في الحياة، فبدأ في كتابة مذكراته[٥٠].

تضيف يليزافيتا كوندوروشكينا في مكان آخر من مقالتها، واصفة زوجها الراحل: في حياته الشخصية كان ستيبان سيميونوفيتش شخصاً بلا عيوب في جميع علاقاته، كان عائلياً نادراً يحب أسرته والراحة المنزلية، فأينما رماه القدر كانت أفكاره دائماً متعلقة بالعائلة، ولم تغادره تلك الأفكار ولو لدقيقة. وكان لا يمل من مراقبة طفلتينا ويسجل بعناية ملاحظاته عن حياتهما.

كان يتميز بالكثير من الأناقة التي تركت تأثيرها الواضح في كتبه. وقد اتبع نظاماً محدداً في حياته، إذ كان يستيقظ باكراً ويعمل كثيراً. واليوم، للأسف الشديد والحزن العظيم الملم بي وبأسرتي، هذا العامل الذي كان بإمكانه أن يعطي الكثير للمجتمع وللشعب لم يعد في الوجود.

مشهد مأسوي آخر تضيفه أخت كوندوروشكين إلى ما كتبته زوجته، ورد تفصيله في جريدة «زاريا»، تحت عنوان «في الجمعية الأدبية»[٥١]. يوم الجمعة، ٢٦ شباط/ فبراير ١٩١٩، نظم في مبنى «سنتر سيبيريا»[٥٢]، الاجتماع الدوري للجمعية الأدبية الفنية، المكرس لذكرى س. كوندوروشكين المتوفي في مدينة أومسك. تشارك ف. ف. كرايكوف - بولسكي[٥٣] مع الحضور ذكرياته عن الكاتب الراحل س. كوندوروشكين... ثم تحدثت أخت الكاتب الطبيبة غ. س. كوندوروشكينا[٥٤] عن الأيام الأخيرة في حياة س. كوندوروشكين. وصرحت بأن أحد أسباب موته كان الهجوم الوحشي الذي تعرض له على يد الجنود الحمر

---

٥٠ . يحتفظ «الأرشيف الروسي الحكومي للآداب والفنون - رغالي» بمجموعتي وثائق تركها كوندوروشكين، ضمن الملف رقم ٢٣١. ويذكر توصيف المجموعة الأولى على موقع الأرشيف أنها تضم مخطوطات كوندوروشكين، وقصاصات جرائد تتضمن مقالاته، ودفاتر يوميات كوندوروشكين وملاحظاته، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المحفوظات والرسائل. انظر: http://www.rgali.ru/object/231737282

٥١ . انظر: جريدة «زاريا» - أومسك، العدد ١٩١٩/٤٦، بتاريخ ٠٤ آذار/ مارس ١٩١٩، ص٣.

في نيكولايفسك. أحد الجنود السكارى انقض على كوندوروشكين وضربه على أذنه، فتمزقت طبلتها. وقد فاقم الألم الجسدي والنفسي من حالته الصحية المتهدورة، حيث لديه مرض مزمن في القلب. فمات ستيبان سيميونوفيتش فاقداً للوعي بسبب نزيف داخلي في الدماغ.

وبعد رحيله ترك مخطوطاً صغيراً لكن قيمته كبيرة، وهو عبارة عن دفتر يومياته لنصف سنة، بالإضافة إلى دفتر ملاحظات دون فيه مسودات رحلته إلى إليادور، لم يكن مسموحاً طبعها حينذاك بسبب شروط الرقابة، وبعد الثورة لم يكن لديه وقت لتحريرها.

وبعد إيرادها تلك الحقائق، تمت قراءة نحو عشرين سطراً من دفتر يوميات الكاتب المشار إليه، عن آخر فترة قضاها في بتروغراد وهروبه إلى سيبيريا. ويختم محرر «زاريا» قائلاً: دفتر اليوميات غير موضب أدبياً، وهو شخصي بعض الشيء يتضمن بعض الأمور الحياتية، لكن إلى جانب ذلك فيه الكثير من الصفحات التي تظهر كوندوروشكين الفنان والمتتبع المدقق في التفاصيل، والمواطن النظيف الكفّ والوطني المترفع عن الأحقاد والغايات. إن نشر دفتر يوميات الكاتب يضيف بدون أدنى شك حلقة جديدة إلى هالة الأدب المرهف والأدب الاجتماعي التي تحيط بالكاتب.

إلا أن دفاتر يوميات كوندوروشكين، بالإضافة إلى ملاحظاته ومراسلاته، وعدد من مخطوطاته لا تزال محفوظة في «الأرشيف الروسي الحكومي للآداب والفنون»، على أمل أن يتم الكشف عنها في يوم من الأيام.

---

٥٢ . «سنتر سيبير»، مقر الاتحاد العام للجمعيات التعاونية للطباعة.

٥٣ . فاسيلي فاسيليفيتش كيرياكوف (١٨٦٨ – ١٩٢٣) صحافي وكاتب، عضو مجلس دوما الإمبراطوري الروسي الثاني في العام ١٩٠٧.

٥٤ . المرجع أنها أغافيا ستيبانوفنا كوندوروشكينا، ولدت سنة ١٨٩٠، وحملت شهرة كورونتيفيتش بعد زواجها من ضابط في الجيش الروسي الأبيض. انتقلت من روسيا إلى أوروبا الغربية مع ابنها بوريس

القسم الثاني: حكايات وقصص

* يوم البريد في راشيا
* بنت البيدر
* حفار القبور
* المصيبة وحيدة
* إنكليزية
* عرفت عرفت!
* شاهين هدلا
* أكولينا في طرابلس
* كوكوكو
* في جبال الثلج
* أبو مسعود

يوم البريد في راشيا

اليوم الجمعة – يوم البريد في راشيا. استبقت البلدة موعدَ استيقاظها المعتاد. في الشوارع رجالٌ بطرابيش ملونة، ونساءٌ درزيات بمناديل بيضاء وتنانير زرقاء. حركة غير عادية تدفع الكلاب الشاردة إلى الركض والتهاوش في ما بينها هنا وهناك، والحمير التي تنقل جرار الماء على ظهورها إلى التوقف قرب مركز البريد.. تتأمله وهي تهزّ آذانها الطويلة. حتى أن توما المكفوف خرج من بيته وهو يتلمس طريقه بعصاه نحو البريد.

على سطح المركز استطعتُ أن أميّز سمعان، المتحمس المولع بالسياسة المؤيد لروسيا، يقف منتظراً متبرماً محركاً حبات سبحته اللؤلؤية بنفاذ صبر، ويرمي عباراته المزينة بالمواعظ والحكم على الناس المجتمعين قرب باب المركز بين الحين والآخر. لكن نظره كان متجهاً دائماً إلى طريق الشام، من حيث يأتي البريد.. وكلما طال انتظاره ازداد توتره. البريد يصل مرة واحدة في الأسبوع، ولا سبيل إلى معرفة الأخبار الجديدة إلا عبره.. فكيف له ألا يقلق؟

الإسكافي ملحم، كذلك استيقظ باكراً اليوم، وهو يعمل منذ الفجر في مشغله الكائن في سوق البلدة. ينتظر سمعان وأخباره الجديدة. الكهنة أنهوا قداسهم قبل المعتاد كذلك.. ولم يتوجه أحد من أبناء البلدة للعمل خارجها. كلهم ينتظرون الأخبار. منهم من ينتظر رسائل من أقاربه في أميركا، منهم من ينتظر الجرائد، آخرون لا ينتظرون أن يحمل البريد إليهم شيئاً، إلا أنهم شديدو الفضول لما لدى الناس من أخبار جديدة. وحولهم الأطفال والديكة يصيحون بأعلى أصواتهم. راشيا تبدو كقرية نمل أثارها طفل بعصا.

ها هو البغل المحمل بالقفف الجلدية يقف أمام مركز البريد. الحشد في أقصى حالات الإثارة. بعد نصف ساعة، يجلس ساعي البريد شاهين بوقار على الشرفة تحت القوس. يهتف بأسماء من وصلتهم رسائل، ثم يلقيها باتجاه الحشد. في الشوارع يتحلق الناس مجموعات حول صاحب الرسالة. وتعلو أصوات من يجيدون القراءة. يقترب حمار تركه صاحبه نحو إحدى تلك المجموعات ليبدي تعاطفه، إلا أن أحدهم يزجره بعصاه.

سمعان كان أول من حصل على بريده. التقط صحيفته «المحبة» ومسح بنظره عناوينها وأعمدتها. توقف في زاوية على طريق السوق، جلس القرفصاء، هزّ طربوشه مرتين.. وقفز، ثم هرول نحو مشغل ملحم الذي كان في انتظاره منذ وقت طويل.

– سعيدة سيد ملحم!

– كيف الأحوال في أوروبا؟ – سأل ملحم بدون أن يرد التحية.

– اليابان على خلاف مع روسيا بشأن منشوريا..

– هِمْ..– قال ملحم، وهو يشد الخيط الثخين في النعل.

– نعم، هناك أكثر من ذلك.. بريطانيا ستدعم اليابان، فبينهما علاقة صداقة.

– هِمْ.. هذا واضح – قال ملحم، وهو يعاين شقاً في حذاء بين يديه.

– كما أن الرئيس الفرنسي – الملقب بلُوبِه – سافر إلى سان بطرسبورغ لزيارة القيصر.


РАШАЙЯ

غرق ملحم في أفكاره. صمت طويلاً، ثم وضع الحذاء والمخرز جانباً، وقال بطريقة استعراضية: يشهد الله، خسرت انكلترا.

اندهش سمعان وفغر فاه: لماذا؟

– إذا كان الرئيس الفرنسي ذهب إلى روسيا، فذلك ليس عن عبث، هل تعتقد أنه مثلي ومثلك، جلس في عربته وسافر بدون قضية؟ لا! انتبه. الآن الانكليز سيعلمون ما الذي تعنيه روسيا!

أعجب سمعان بتفكير ملحم وصرخ باحتفالية نحو خصمه السياسي اللدود المعلم البروتستانتي الذي صدف عبوره أمام المشغل: هذه هي نهاية انكلترا يا معلم! الروس سيرون الإنكليز ما هي روسيا! أتسمع يا سيدي؟ سيرونها!

المعلم البروتستانتي المندهش سأل: لماذا الروس؟ ماذا؟

– الروس سيعلنون الحرب على انكلترا واليابان. روسيا وفرنسا ضد انكلترا واليابان! راحت انكلترا!

– انكلترا ستربح. – أجاب المعلم بثقة.

– لا يا أخي ستربح روسيا!

– لا يا أبي.. إنكلترا.

– سيدي أنا أقول لك روسيا ستربح! ملحم أثبت ذلك!

تكاثر الناس حول المشغل. نساء لم يصلهن أي بريد بدا الحزن عليهن وخيبة الأمل. جذبهن الضجيج فأثار فيهن حشرية معرفة أخبار الآخرين. فجأة لوّحت إحداهن بيدها وصرخت بصوت أجش: بالطبع ستربح روسيا! القيصر الروسي، نصره الله، عندما نشبت الحرب بين روسيا والصين، نزع وشاحه عن رقبته وأعطاه للملكة الصينية. وقال لها: اذهبي إلى بكين، ضعي عليك هذا

الوشاح، ولن يعترض طريقك أحد. ذهبت الملكة إلى بيتها، وهي تعيش اليوم بأمان.

استدارت أفواه الجميع من الدهشة. لكن سمعان غضب بشدة، إذ لم يكن أول العارفين بتلك المعلومة السياسية البالغة الأهمية. صاح في المرأة: ماذا تفهمين أنت؟ اذهبي من هنا!

ثم انتقل إلى المعلم من جديد: أسمعت ما قالته المرأة؟ ستربح روسيا! أسمعت عن قوة القيصر الروسي؟ هل هي كاذبة؟ لا! هذه المرأة لا يمكنها أن تخترع شيئاً من هذا القبيل. هذه هي الحقيقة، ستربح روسيا!

ـ لا، انكلترا!

وأثار الجدل عدواه بين المحتشدين: ما الأمر؟ يقولون إن الحرب اندلعت بين روسيا وبريطانيا بشأن منشوريا.. يا إلهي! روسيا ستربح.. لا، انكلترا! صرخ المعلم البروتستانتي.

ـ أتشارط؟ انتفض سمعان ورمى على الأرض ليرة فرنسية ذهبية (تعادل ٧ روبلات وخمسين كوبيكاً) هتف الحشد موافقاً على الرهان.

ـ أنا بدون شرط أعرف أن انكلترا ستربح ومن الأفضل لك أن تفعل ذلك - قال المعلم وهو يشعر بالحرج - إذا كان الشرط على مجيدي (يعادل روبلا واحدا وستين كوبيكاً). لا أملك أكثر من ذلك. - ضحك سمعان، وأخذ المجيدي.

ـ أعطيا النقود لملحم. لملحم. - صرخ الحشد - أخذ ملحم المجيديين ووضعهما في حذاء جديد مصنوع للتو. وقال: روسيا ستربح! أنت خسرت أيها المعلم!

ـ من أنت؟ روسي أم عربي؟ - سأل المعلم.
ـ وأنت. قل لي من أنت؟ انكليزي؟ - هاجم سمعان المعلم.
ـ أنا انكليزي. أنا كنت في انكلترا. - قال المعلم بثقة.
ـ ايه. وحمار سرسق (ثري سوري معروف) يمكنه القول إنه من عائلة سرسق. لكن سرسق يحمل عليه خدمه. كذلك أنت! - قال ملحم وهو يهز طربوشه.

ـ كيف؟ هل تعني أنني حمار؟ أنتم الحمير!
ـ وانت كلب ابن كلب! كيف تسبنا يا ابن الستين صرماية!
ـ أنتم جميعا حمقى لا تفقهون شيئاً. وتحشرون أنوفكم في الجرائد!
ـ انتظر. سدّدْ ديونك إليّ قبل أن توجه الإهانات!

أحاط الناس بالمعلم. لم يفسحوا له ثغرة ليهرب. لكن صرخة طويلة يائسة لامرأة اخترقت بحر البشر. ثم انضمت إليها صرخات نساء أخريات. مزقت الصرخات أجواء البلدة وترددت أصداؤها في الآذان. الصرخات كانت ضرورية، وكان المقصود منها أن تصل إلى كل أبناء البلدة.. ليعرفوا جميعهم أن البشر على وجه البسيطة نقصوا واحداً منهم.

استغل المعلم البروتستانتي الفرصة وانسحب مبتعداً. انتقل الحشد إلى حيث العويل. فقد حمل البريد خبراً حزيناً عن موت أحد أبناء البلدة في أميركا. زوجته صارت تلوّح بيديها، وتصرخ: يا ويلي! لقد متُّ. اخترب بيتي. مع من سأعيش من دونك يا حبيبي.. يا حبيبي! يا ليتني لم أعرفك!

توافد الناس من السوق إلى بيت الأرملة، واحتشد كل أهل البلدة أمام بابها.. الكل بين زافر ومتنهد. سمعان وقف هناك كذلك متأبطاً صحيفته. أتى ليبدي حزنه على الراحل، لكنه لم يتوقف عن الحديث في السياسة.

ومن الأحاديث الجانبية تبين أن اليابان كانت ترغب منذ وقت طويل بالتحالف مع روسيا، لكن روسيا طلبت منها التخلي عن الوثنية واتباع الأرثوذكسية. أما بالنسبة لإنكلترا، كما هو معلوم، فكل الأديان لديها سواء.. وهكذا تحالفت اليابان معها. قضى سمعان نهاره كله متجولاً في أحياء البلدة ليثبت للجميع أن روسيا ستنتصر. فالخلاف مع المعلم البروتستانتي بث فيه الحياة.

وأخيراً هدأت البلدة. احتضنتها الجبال الشامخة من حولها، بدت الجبال أكثر قرباً والغيوم تكللها. نامت البلدة المتناثرة بيوتها على صدر الجبل. نامت كطفل رضيع. لكن بين الحين والآخر كانت أنات وتنهدات مبهمة تخترق الصمت كهديل حمامة حزينة.

يوم البريد في راشيا - هوامش

* استخدم كوندوروشكين لفظة «إزار»، وشرحها بين قوسين: غطاء رأس نسائي. وغطاء رأس المرأة الدرزية مطلع القرن العشرين كان منديلاً من الشاش الأبيض المطوي مستطيلات، وتحته قميص من الحرير، ثم اللباس المزموم الساقين. أما قنابيز المرأة المتصلة بالدين فكانت معتمة. انظر: مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، رياض غنام (بيروت: مكتبة بيسان، ط١: ٢٠٠٠) ص ص ٤١٢-٤١٣.

* المحبة: جريدة أدبية علمية أخبارية أسبوعية، صدر العدد الأول منها في بيروت عن «جمعية التعليم المسيحي الأرثوذكسية»، بتاريخ ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٩٩، صاحب امتيازها فضل الله فارس أبي حلقة. تحولت إلى جريدة يومية في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٨. انظر: الصحافة اللبنانية - القاموس المصور ١٨٥٨-١٩٥٨، جوزف الياس (بيروت: دار النضال، ط١: ١٩٩٧). كذلك: قاموس الصحافة اللبنانية ١٨٥٨-١٩٧٤، يوسف أسعد داغر (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ط١: ١٩٧٨).

* إميل لوبيه (١٨٣٨-١٩٢٩): انتخب رئيساً للجمهورية الفرنسية عن التحالف الجمهوري الديمقراطي في ١٨ شباط/ فبراير ١٨٩٩ خلفاً لفيلكس فور، واستمر لوبيه في منصبه حتى ١٨ شباط/ فبراير ١٩٠٦. بعد سبع سنوات على انتهاء ولايته لم يترشح للرئاسة من جديد، بل فضل اعتزال الحياة السياسية. والزيارة المذكورة هي زيارته للقيصر الروسي نيقولاي الثاني ربيع ١٩٠٢، حيث ظهر لوبيه في رسم كاريكاتوري على غلاف عدد خاص من صحيفة «ليرير»، وهو يحمل قلباً أحمر كبيراً مربوطاً بشريط العلم الفرنسي، يقدمه هدية للشعب الروسي. انظر: صحيفة «ليرير»، العدد ٣٩٦، في ٧ حزيران/ يونيو ١٩٠٢.

* الليرة الفرنسية كانت تعادل ١٠٧ غروش عثمانية، بينما الريال المجيدي ٢٠ غرشاً. انظر: مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، رياض غنام - مصدر سابق، ص ٤٠٨. وخطط جبل عامل، محسن الحكيم (بيروت: الدار العالمية، ط١: ١٩٨٣) ص ١٤٠.

بنت البيدر

أيها القارئ، إن لم تزر لبنان الشرقي الوعر، بالقرب من حرمون العالي، فلن تتمكن من معرفة ماهية الليالي المقمرة هناك. بصمت يغسل ضوء القمر لبنان الشرقي، وقممه تصطف كأشباح.. إحداها أعلى من الأخرى، وفي الوهاد تستلقي الظلال حريرية قاتمة تمتزج بغيوم بيضاء. الصخور الرمادية الصماء مغطاة بحبات ندى يتلاعب بها ضوء القمر مزيناً الأحجار العارية بالماس. الجو صاف وشفاف. ما أن يغرّد عصفور في هذا الصمت، أو يعوي ابن آوى، حتى يتردد الصدى في ثنايا حرمون الأشيب، فيرسل إليه لبنان جواباً مكبوتاً مبهماً.

لكن الرهبة تمنع من إصدار أي صوت في هذه الليلة الهادئة السحرية، فما أن تهمهم الجبال حتى تئن الأرض، فيرتعد ويهز الشيخ حرمون رأسه. يغدو رهيباً فتستجيب له الطبيعة بوجل في لحظة احتفالية للربيع الجنوبي. إلا أن الجبال لا تكلف نفسها عناء استراق السمع إلى أحاديث الأرض والسماء، فليحدثا بعضهما البعض. أما في النفس البشرية فتشتعل ذكريات أغنيات قديمة رائعة طواها النسيان، تنحاز إلى الحب، فأجهد أن أسترجع الكلمات المنسية. لدي اعتقاد راسخ أن الروح في تلك الليالي تتذكر أصولها السماوية.

في واحدة من تلك الليالي الربيعية الرائعة، توجهت مع ثلاثة من رفاقي العرب نحو راشيا، البلدة المرتاحة على سفح تلة حرمونية، على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر. طريقنا كانت متعرجة في السهل المرتفع بين اللبنانَيْن، تتلوى بين كتل الصخور البركانية الداكنة، وسلالات صخرية مبهمة أخرى. نهاراً هذه البقعة تكون عارية يملؤها الحزن، أما الآن، فضوء القمر يزركش الصخور بظلال غريبة.. كل شيء حولنا يلمع، ويعكس نور القمر، كما لو أننا في قلعة خرافية لساحرة طيّبة. إلى الغرب من بعيد، يموج الأفق بلون ذهبي شفاف، وقمم لبنان تختبئ خلف فرو سماوي سمحتْ له بالمبيت عليها.

اقتربنا من سفح تلة راشيا الحرمونية. كانت خيولنا تمشي مترافقة، متيقظة لوقع حوافرها على الدرب، تزفر هواء رطباً. الشاب القوي الرشيق مخايل خوري، أرخى زمام فرسه الحامية، فدارت به كشيطانة بضع دورات بين الصخور، قبل أن ينضم إلينا. رفيقي الثاني المدرّس عيسى، قلما كان يسرع بفرسه الفتيّة، ولم يكن ليتعبها، بل كان يقودها باتئاد رابطاً رأسه بمنديل، يتأمل روعة الطبيعة من حوله، ويقول أحياناً: «يا للروعة يا سيدي! ما هذا الجمال!». رفيقنا الثالث كان فتى صغيراً، سار خلف مدرسه عيسى مطأطئاً رأسه.

بات الجو أكثر رطوبة، وصارت السحب الداكنة تزحف تحت أقدامنا وتلتف حول الوديان والشعاب. وفوقنا كل شيء كان واضحاً، وضوح حلم شاب في العشرين. عمّ الهدوء حولنا، ولم أستطع أن أميز أي كائن حي. فمنذ فترة طويلة كان الفلاحون قد تركوا الحقول مع حميرهم وأبقارهم ومحاريثهم المتواضعة. والرعاة كذلك، كانوا قد رجعوا ليزربوا قطعان الماعز والأغنام. لا رحالة، ولم تكن لدى أي مواطن سوري حاجة ليخرج من بيته ليلاً، على الرغم من أنها كانت الليلة المقمرة الأكثر روعة. ربما رأى أن الأجدى له أن يجلس مع بطحة عرق فوق سطح بيته ويغني محدثاً النجوم بمشاعره وأحلامه. باختصار، لم نلتق بأحد في الجبال.

لكن من بعيد، نقطة حمراء تلمع، قبس نار. كانت تحجبه عنا الظلال بين حين وآخر، فيتراءى لنا كما لو أن النار تختبئ في الأرض ثم تلمع من جديد.

– لا بد أنهم مصريون يحضّرون العشاء – قال عيسى المعلم.
– دعونا نشاهد رقصهم – صاح مخايل خوري بفرح.

توجهنا نحو الضوء.. هناك قرب موقد ميّزنا ثلاثة أشخاص في الظلام. قربهم اختبأت الحمير من ضوء القمر خلف خيمة صغيرة ممزقة. نبحت الكلاب فتردد نباحها في الجبال. ووافتنا رائحة دخان. أخيراً وصلنا إلى الموقد.

ـ السلام عليكم – ردّد المعلم عيسى غير مرة.

ـ ليلتكم سعيدة! – صرخ مخايل خوري.

ـ وعليكم السلام، ليلة خير.. تفضلوا أيها السادة، شرفونا – قال رجل عربي مصري أسمر. ولمس الأرض بيده، ثم رفعها إلى شفتيه وجبينه – تفضلوا ارتاحوا، من أين أتيتم؟

ـ أتينا من هناك – أشار مخايل خوري بيده إلى مكان غير محدد، وتربّع قرب النار على حصيرة خشنة.

قرب الموقد جلست عجوز أحنى ظهرها الدهر، ووقفت طفلة في الثامنة من عمرها. كانتا في ثوبين باليين وسطهما زناران ملونان، وتحتهما سروالان واسعان. القسم الأسفل من وجه العجوز مغطى بمنديل، وفي أنفها حلقة ذات سلسلة معدنية تصل إلى جبينها لتختفي تحت المنديل. وحدهما عيناها المتحركتان على صفحة وجهها، كانتا تبثان الحياة في مظهرها الميت. أما الطفلة فكانت نحيلة كقصبة تحت مياه الليطاني، تقف قرب الموقد، تنكث جمره بعصا وتلتفت نحونا أحياناً بعينيها السوداوين الكبيرتين.

ـ أهاتان ترقصان؟ – سأل مخايل العربي، وهو يومئ برأسه نحو العجوز والطفلة.

ـ بالطبع ترقصان، لكن هل سيُسعد السيد بذلك؟

ـ ولأي غرض توقفنا عندك إذن؟ – ضحك مخايل – آتنا بالدربكّة! ومن سيرقص، أهذه الطفلة وتلك العجوز؟

ـ لدينا فتاة كذلك – قال العربي بحذر – سآتي بها. وكذلك نجمة ترقص – وأشار إلى الطفلة.

مشى العربي نحو الخيمة، وفي طريقه إليها كان يزجر الكلاب التي لم تكن قد تآلفت مع مرآنا بعد. هناك في الخيمة تهامس مع شخص ما لوقت طويل. وأخيراً خرج نحو الموقد، تربع على مقربة منه، ناول العجوز طبلة، والفتاة دفّاً، أما هو فعمل على دوزنة عوده، وبحماس رفع رأسه نحو السماء.

بتوازن وتناغم تآلف قرع الطبلة مع ألحان أوتار العود ونقرات الطفلة على الدف، وسرى ذلك التناغم في الجبال مردداً صدى، فهدأت الكلاب واقتربت من الموقد ببطء قبل أن تتمدد قربه. فهمنا ما الذي يحدث، فمضيفتنا سترقص. بعد قليل، ومن تحت عزف الأوتار خرج صوت العربي قوياً وعالياً، مبحوحاً شرع بأغنية راقصة طويلة، رافقتها العجوز بالطبلة:

أشدوكِ من شعري فلاقيني

عيناكَ يا ليلى كنجم سهيلْ

نومي بسحرهما يجافيني

أرِقُ بغنجهما أنا والليل

أرويكِ من خمري ومن عيني

والليل نازعني شديد الحيل

بعضَ السنا من مقلتي ليلى...



Баядерка

فور شروع العربي بالغناء، خرجت من الخيمة فتاة حافية قوية البنية في ثوب رث ممزق، كان وجهها مكشوفاً تزينه أوشام دقيقة على ذقنها وأنفها. بصمت أخذت الدفّ ووقفت وسط حلقتنا، ومالت ببطء وهي تهتز مع ضربات يدها على الدف. ذلك الرقص العفوي البريّ بعث في نفوسنا السرور. ببطء، وبعينين مسبلتين، تلوّت الفتاة في دوائر مع نغمات دفّها، كشجرة حور، أمام عيوننا المشرعة على التهام كل حركات جسمها الفتيّ. كل شيء فيها كان يرقص، حتى عندما تجمد في وضعية ما لبرهة، كما لو أنها ترتجل حركة جديدة تضيفها إلى رقصها الحر. سبحت في فراغ الدائرة بيننا، كعصفورة حُبست في قفص، تنثر من دفها زغردات متواترة. تتلوى كحية ثم تخالها تثبت، إلا أن يديها وردفيها وثدييها بين اهتزاز وارتعاش، وتتناثر على وجهها خصلات شعر أسود تتألق من بينها عيناها السوداوان الشبقتان، فتنتشر في الجو سحر الإغراء الجميل. يبدو أن القمر توقف يراقب من عليائه، وحوله النجوم، هذا الشغف الحلو المؤلم في ارتعاشات جسمها الطيّع.

تدفقت الأغنية الصافية وهامت في هواء الليل، حفّت بالصخور الرمادية، وزحفت على الأرض، وكما لو أنها تخشى الارتقاء نحو المرتفعات اللامتناهية، حيث يمكن أن تضيع زفرات الشغف البشري، وآهات بهجة الحب.

دامعُ العينينِ في الهجرِ

أذرفُ الدمعاتِ من قهري

ذاهلٌ بهواك يا أملي

ضمني واغمرني بالقُبلِ

قدّك السرويُ ميالُ

في لهيب القلب جوّالُ

ضمني فهواك قتّالُ

ضمني واغمرني بالقُبل

يا حبيب الروح يا خمري

يا أُسيْدَ الغاب يا فخري

ذاهلٌ بهواك يا عمري

ضمني واغمرني بالقُبل

عينا العجوز لمعتا ببريق مجنون مع كلمات الأغنية، أما مخايل فكان يصفق بحماسة، ويلاحق بعينيه الراقصة محاولاً أن تلتقي نظراته بعينيها. مدّ ذراعيه نحوها كما لو أنه يريد أن يضمها، أستطاع أن يمسك لبرهة بثوبها، وصرخ: رائع، رائع يا شفيقة - بات يعرف اسمها - عافاك! حتى أن المعلم عيسى الرزين تمايل وقال: تسلمي، تسلمي يا شفيقة!

أما شفيقة فكانت تتابع رقصها مقتربة من كل واحد منا، تنحني، تثني ركبتيها وتتمايل ببطء، ملقية رأسها بين يديها إلى الخلف فيبرز صدرها الممتلئ، تهزّه من تحت أسمالها البالية. ثم تلوّت، طوت جذعها إلى جنبها الأيمن ملامسة الترب بشعرها الداكن، ورسمت به نصف دائرة بين يدي كل منا، وكأنها تحيينا تحية احترام.

أتعب الرقص شفيقة، فجلست جامدة على الأرض قرب الموقد تحدق في ناره بصمت. صمت كل ما فيها وكأنها لم تكن ترقص قبل دقيقة، اللهم إلا فتحتي أنفها المتحركتين باضطراب، والمحركتين حلقة فضية تتراقص مع زفير صدرها.

خرجت حشرجة من صدر العربي اختنقت بها حنجرته.. وحلّ صمت حزين دام لدقيقة. كما لو أن كل واحد منا قصد زاوية قصية من الذاكرة تضم سعادة زائلة. أكان ذلك من تأثير أشعة ضوء القمر، أم الأغاني الجذلة كانت قد دفعت الحزن بعيداً فأعاده غيابها. لكنني أردت أن أستمع إلى أغان أخرى. سألت العربي: غنّيت أغاني مرحة، عن حبّ الناس بعضهم لبعض وكيف يشعرون بالسعادة، ألديك أغان عن أحزان الإنسان؟

تجعد جبين العربي بتركيز، وضرب أوتار عوده غير مرة، كما لو أنه يسألها إن كانت ستصدر أنغاماً حزينة عن معاناة البشر، ثم التفت إلي وقال بحزم: لا يا سيدي، تلك الأغاني لا نعرفها.

ـ كيف لا تعرفها؟ - تابعت طلبي بإصرار - لا يمكن ألا تكون قد مررت بأحزان أو هموم؟ ألم يخسر أحد منكم شخصاً عزيزاً عليه، أب، أو ابن أو زوج؟..

فجأة، ارتعدت فرائص شفيقة المنحنية باتجاه نار الموقد، ثم طأطأت رأسها أكثر، وضمته بيديها. أما العجوز التي لم تنبس ببنت شفة من لحظة وصولنا، فتحدثت. صوتها بدا كنعيق فجّ، ذي بحة.

ـ لا، لا نعرف تلك الأغاني، لقد قال لك! نحن لا نحزن ولا نبكي على موتانا. إن مات أحدنا فهي مشيئة الله، إيماننا لا يسمح لنا بالحزن على ميت - وجعلت تحملق في شفيقة - لا شيء لدينا نخسره في هذه العيشة. كلنا هنا. ولا نعرف أغاني حزينة. ولماذا علينا أن نعرفها؟ لا أحد يجبرنا أن نغني تلك الأغاني...

وصلت إلى آذاننا موجة تنهدات مكتومة، تلفتنا حولنا لنحدد مصدر الصوت.. تلك الموجة تبعتها موجة أخرى أكثر وضوحاً أتت من صوب شفيقة، التي ارتعد جسمها فجأة، وكأن ظهرها انخلع من مكانه، لم تصرخ أمامنا ولم تبك، بل ابتعدت عن النار مخفية وجهها بكفيها، وطرحت جسدها على الأرض قرب صخرة رمادية، وجعلت تنثر شعرها الليلي حينا، وتمزق ما لم يكن ممزقاً من أسمالها أحياناً، وتعول عويلاً يقطعه اختناقها بالدموع.

ـ يا الله! ها هي من جديد.. - قال العربي باستياء - اذهبي إليها! - التفت نحو العجوز. انتصبت العجوز، وألقت نحونا نظرة غاضبة، وتوجهت نحو الفتاة المنتحبة.

ـ مرّ أسبوع على موت خطيبها - قال العربي - كان يجول معنا، ويغني. شاب وسيم، قوي، سعيد.. لكن شفيقة ها هي تبكي الآن! بالطبع ذلك غباء.. مات أحدهم، ستجد آخر.. وما فائدة الميت؟ لمَ البكاء على الموتى؟

ذلك الجسم الغض الذي كان يرفرف راقصاً بشغف منذ دقائق، ها هو يتلوى مرتجفاً على الأرض في بحر من المعاناة. جلست العجوز قرب شفيقة، كانت تمسّد شعرها الأشعث، وتتحدث إليها بهدوء، ومودة. لكن ذلك الحديث اختلط بغضب متدفق، كانفجار نبع ربيعي من بين ثنايا حرمون. طال الحديث، إلى أن ساعدت العجوز شفيقة لتقف على قدميها، وذهبت بها إلى خيمتها.

مخايل خوري، المندهش من التطور غير المتوقع للأحداث، فك قيد فرسه بغضب، وصبّ عليها غضبه. صار يوبّخ الفرس المسكينة، ارتقى السرج واختفى عن الأنظار بلحظة. ركبنا أفراسنا كذلك، ومنحنا العربي بعض المال لقاء رقص شفيقة. أخذ ما أعطيناه، وضعه في جيبه، وقال:

ـ غداً سنكون في ضيافة أحد أشراف راشيا، سترقص شفيقة هناك أفضل من رقصها هنا، لكن لا تسألني أن أغني أغاني حزينة.. مع السلامة يا سيدي..

نظرت صوب الخيمة الهادئة. كان ضوء القمر قد تسلل إلى داخلها واستلقى على جسد هامد يرافقنا بعينين واسعتين.

«نحن لا نعرف أغاني حزينة. ولماذا علينا أن نعرفها؟ لا أحد يجبرنا أن نغني تلك الأغاني...»، تردد قول العجوز في رأسي، لكن القلب البشري المغفّل، يحتاج أحياناً إلى أغان حزينة تخفف من آلامه، تلطف وقع ضرباته القاسية الثقيلة. كنت أشعر بالأسى والألم.

رفاقي ساروا بصمت. حاول مخايل أن يشدو أغنية عن الليل.. عن المحبوب، لكنه سرعان ما صمت. نبحت الكلاب، فها نحن في راشيا.

ـ غداً سنشاهد كيف سترقص شفيقة – قال مخايل، وهو يودعني – رقصها جميل. لكنها حمقاء تبكي على خطيبها.

بصمت تفرقنا على البيوت.. أما العربي وبنت البيدر فلم ألتق بهما مجدداً أبداً.

بنت البيدر - هوامش

* استخدم كوندوروشكين تعبير «بيادركا - البيادرية»، مضيفاً لاحقة النسبة الإسمية المؤنثة إلى البيادر - أماكن دراسة الحبوب في القرى، والبيادرية هي راقصة ترحل من مكان إلى آخر وتبيت في خيمة على البيادر، كما شرح. إلا أن لفظة «بيادركا» كانت متداولة في الأوساط الثقافية في سان بطرسبورغ منذ العام ١٨٧٧، حين عرضت للمرة الأولى على المسرح الكبير في المدينة مسرحية باليه «بيادركا» من تأليف ماريوس بيتيب وسيرغي خوديكوف، وموسيقى لودفيغ مينكوس. واللفظة المتداولة تعني الراقصة الهندية.

* اللبنانان - لبنان الغربي والشرقي: سلسلتا جبال لبنان الغربية والشرقية (ليبانوس وأنتي ليبانوس)، وإذا ما أطلق لفظ لبنان في مؤلفات ومذكرات الكتاب والرحالة الروس في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فمعناه سلسلة جبال لبنان الغربية، أو متصرفية جبل لبنان. أما سوريا فهي ولاية دمشق بالإضافة إلى بر الشام كله، حيث ولاية بيروت والمتصرفية. والسوريون هم سكان المنطقة من بدو وحضر.

حفار القبور

حمل أعباء مسؤولية دفن جميع الموتى في راشيا. كان يدفنهم إما واحداً واحداً في المقبرة، أو يضع توابيتهم قرب بعضها البعض في المغارة الكبيرة.. وفق ما يرتأي أقاربهم.

في المغارة كان يعرف جيداً صاحب كل تابوت على حدة، كما يعرف الموسيقي مفاتيح البيانو. هناك، نظم بضاعته في صفوف، فأبرز توابيت الموتى الأكثر احتراماً، والمكان الأكثر أهمية كان في الزاوية الأقرب إلى باب المغارة. وإذا ما غضب على أهل ميت لسبب ما، كان يعيد ترتيب مغارته، ليحصل المذنب على المكان الأقل شرفاً. وعندما تمتلئ المغارة بالتوابيت، كان يلقي القديم منها، يجمع العظام في كومة، يحفر حفرة كبيرة ويلقي بها كلها. ويجهز بيوتا جديدة تستقبل الوافدين المكفهرين الصامتين.

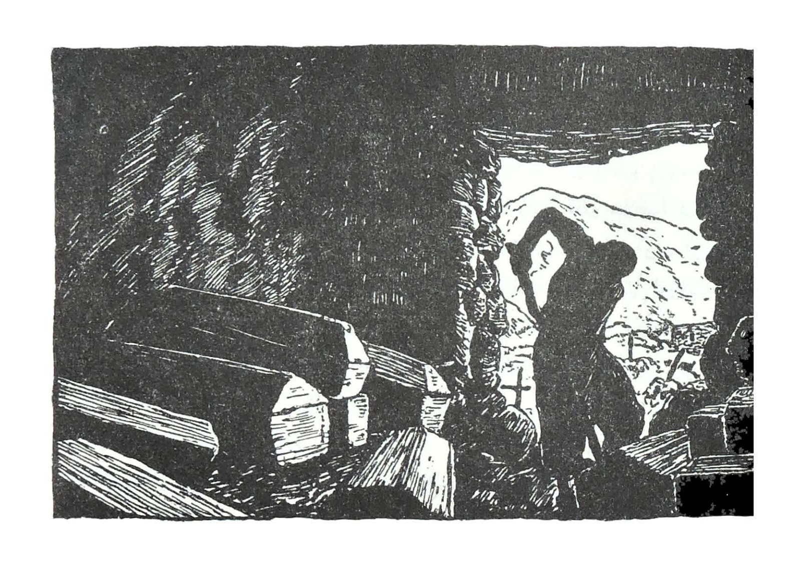
سكان البلدة جميعهم، كانوا يحترمون حفار القبور إسبر، وكانوا يخشونه كذلك. يخشونه، لا لكونه يمارس تلك المهنة القاسية المروّعة.. لا. ففي البلدة الصغيرة القابعة فوق السفح الوعر للبنان الشرقي، كانت الحياة تمضي هادئة، إلى درجة أنها لم تختلف كثيراً عن الموت. والموت لم يبد رهيباً كما يبدو في المدن الكبيرة. على علو ستة آلاف قدم عن سطح البحر، هنا، بين الصخور الرمادية الصماء، فوق جبال جدباء، تآلفت الحياة مع الموت بلا وجل، ومدت إليه يدها المرتعشة. هنا يعيش الإنسان بصمت، ويموت كذلك بصمت تحت حجارة تلهبها حرارة الشمس.. ومن فوق، كان الصمت الأشيب لأعالي لبنان الشرقي يحلل اللغز الصعب للحياة والموت.

كانوا يهابون إسبر لأنه ببساطة كان يتعاطى مع الأحياء والموتى على حد سواء، بسوقية ووقاحة. لم يفرّق بينهم. كان ينظر إلى الجميع كأنهم مدينون له، عاجلاً أم آجلاً سيأتون إليه ليدفعوا ما عليهم من جزية. للغني كان يقول بصراحة: «حسناً، لا يمكنني أن آخذ منك أقل من مجيدي، ولا تفاصل في السعر».. يسارع الغني إلى الاختفاء عن ناظري حفار القبور غير المحترم. أما إسبر فكان يشكو.

ـ الموت رخيص هذه الأيام، رخيص.. أرخص من الفجل. حفرت له حفرة بين الصخور، دفنته فيها.. حرصت ألا تتمكن بنات آوى من الاقتراب منه لتنهشه.. ومقابل كل ذلك ماذا؟ ستة قروش! (حوالي أربعين كوبيكاً) الكاهن يأخذ مثل هذا المبلغ. مثلي مثله، لكن أيقوم بما أقوم به؟ يلوح بمبخرة ويغني، وتنتهي مهمته. أذلك صعب؟ لا. لكن الموت صار رخيصاً. أفي السابق كنت لأرضى بهذا؟!

دائماً وأبداً، ذكرى الماضي الحبيب تشعر الجميع بالسعادة!

بالإضافة إلى عمله كحفار قبور، كان لدى إسبر عمل آخر، نظر إليه كوظيفة إضافية. كان لديه رأس قوي جداً. برأسه كان يكسر الجوز والعصي، ويقص الألواح الخشبية. فلو حدث شجار أو عراك قلما كان يستخدم يديه، بل يضرب الخصم برأسه. ولو ضربه بجبهته لهوى في مكانه، ولبدا الخصم كخروف صريع. كان يستعمل رأسه لتسلية الجمهور. لم يفعل ذلك فقط لكسب المال، بل كان يستعرض أمام المسؤولين الأتراك. كان إسبر يحترمهم ويخشاهم. أولاً لأنهم السلطة، وثانياً لأن دفن الموتى المسلمين لم يدخل في مهامه. أما المسيحيون، زبائنه المستقبليون، فهل كان إسبر ليسليهم باستعراض من رأسه؟!
كان يأتي إلى بيت القائم مقام حاملاً خمس حبات جوز، يقول:



МОГИЛЬЩИКЪ

ـ السلام عليكم يا سيدي!
ـ وعليك السلام – يجيب القائم مقام – ما الجديد لديك يا إسبر؟
ـ ها أنا أتيت، يا سيدي، لآكل هذه الجوزات في حضرتكم.
ـ حسناً.. كلها..

يضع إسبر حبة جوز على الأرض الحجرية، يركع فوقها، ويكسر قشرتها القاسية بجبهته، ثم يأكل ما فيها. ويفعل ذلك مع الحبات الأخرى.. يضحك القائم مقام، ويمنح إسبر على إبداعه بشلكاً (نحو عشرين كوبيكاً)، وأحياناً أكثر.

السمة المميزة في طبع إسبر كانت كرهه الشديد لكل جديد. فقد اعتاد التعامل مع الموتى، الذين أطاعوه في كل شيء بلا أي تردد، وأراد أن يطيعه الأحياء كذلك بخنوع. كان يكره أي ابتكارات. طالب بأن تكون التوابيت كلها متماثلة في الشكل، وأن يتم دفن الموتى بطريقة واحدة، وفق تعليماته: ألستُ الأدرى بما هو الأفضل للميت! افعلوا كما أقول لكم – كان يصرخ في الوجوه الباكية لأقارب الميت.

تجاوز طبع إسبر حدود مهام عمله اليومية، كان يتدخل في كل شاردة وواردة في البلدة، معمماً كرهه لكل جديد.

راشيا، لم يكن فيها نبع للمياه العذبة، والبلدة كلها كانت تشرب من برك كبيرة تتجمع فيها مياه الأمطار. وفي نهاية الصيف تشح البرك، ولمدة شهرين تقريباً، كان على الأهالي أن ينقلوا المياه على الدواب إلى بلدتهم من الوديان المجاورة، في رحلة تقارب ساعتين. وبدأ الأهالي يتحدثون عن إمكانية جرّ المياه من حرمون إلى البلدة عبر أقنية، فبدأ إسبر يسخر منهم:

ـ بيعوا نساءكم، وأحصنتكم وحميركم، وجرّوا المياه في الأقنية، فلن يشرب منها أحد. تحتاجون إلى مياه عذبة.. أكان أجدادكم أسوأ منكم، أكانت حياتهم أكثر سوءاً؟!

ولما تعب أهالي البلدة من السير عبر الدروب الجبلية، وارتأوا أن يطلبوا من الحكومة التركية أن ترسل إليهم شخصاً ذا معرفة، يشق لهم طريقاً معبدة، ضحك إسبر طويلاً: نعم، ستشق لكم الحكومة طريقاً على حسابكم، وستخرب بيوتكم.. ستكون الطريق مرتعاً للذئاب وبنات آوى. ثم سيأتي إليكم أناس آخرون يشترون منكم الأرض بتراب المصاري، سيستمتعون بأرضكم ويصبحون أغنياء، أما أنتم فسيطردونكم أو ستعملون لديهم مياومين..

وهكذا، لا المياه وصلت إلى راشيا ولا الطريق شقت..

من بين المسيحيين، كان إسبر يكن احتراماً بالغاً للمعلم. ربما لأنه كان يوافقه طبعاً.. ولا يقل عنه تسلطاً. كان معتاداً على التعامل مع تلاميذ المدرسة كأشياء، فلم يترك لهم أي فسحة من الحرية، وكان يطالب أهاليهم بالكثير. ومن المعروف أنه لا يوجد فوق ظهر البسيطة من هو أكثر صبراً من حفاري القبور والمعلمين والرهبان.

كان إسبر يوافق المعلم على قسوته في التعامل مع تلاميذه، وأحياناً كان يقصد المدرسة في يوم الفلق ليستمتع بمعاناتهم. المذنبون منهم كانوا يقفون في طابور، ويفدون صامتين واحدهم وراء الآخر، ليتلقوا الضربات على كعوب أرجلهم. تلميذان يختارهما المعلم، يوثقان قدمي التلميذ المذنب جالساً على كرسي. رجلاه ممدودتان إلى الأمام على كرسي آخر، أما المعلم فكان ببطء

وتركيز ينظر إلى رجلي الولد، مقدراً قوة الضربات. ينهال عليهما بخيزرانة. كان إسبر يطلق صرخات استحسان ويقول للولد المعاقب: هذه النعمة ستكتب لك في ملكوت السماء. كان يقول ذلك بثقة، وكانوا يوافقونه. فمن غير حفار القبور أكثر علماً بقواعد وأعراف ملكوت السماء؟

بعد استمتاعه بالمشهد ذي التنظيم العالي، كان إسبر يتوجه فوراً إلى موتاه، ولفترة طويلة يحفر قبوراً إضافية، أو ينظف المقبرة من الأحجار والأعشاب.

* * *

في أحد الأيام، وللمرة الأولى منذ خلق العالم، وصل تويجر يهودي إلى البلدة حاملاً بضائع أوروبية. أشياء لم يرها أحد من قبل. ساعات جيب معدنية سوداء رخيصة، ومظلات. علق اليهودي على صدره وبطنه عشرات الساعات، وتدلت المظلات من جيوبه، وتمشى عارضاً بضاعته في سوق البلدة. شاع الخبر، فتجمهر الأهالي كلهم للتفرج على رجل غريب المظهر في قبعة، يحمل أشياء لا عهد لهم بها. كانت لديهم فكرة غامضة عن الساعات، فكانوا قد سمعوا عن وجود آلة معدنية تخبر عن الوقت، أما عن وجود ساعات صغيرة يمكن وضعها في الجيب، فلم يصلهم خبر كهذا. وعن المظلات كذلك.. أشياء غريبة ورخيصة أيضاً!

اهتاجت البلدة حول اليهودي، وأتاه المشترون، حتى أن التاجر باع بسرعة معظم ما كان يحمله من بضائع. وفي أزقة البلدة التي تزين خلفيتها صخور رمادية محمرّة، تداني ألوان البيوت، تمشت بقع المظلات الداكنة. وعلى القنابيز بالقرب من البطون، تدلت سلاسل الساعات الفولاذية البراقة. كان من حظي

بمظلة أو ساعة يتمشى في السوق. كانوا يستمتعون باللعب بسلاسل الساعات وبانعكاسات أشعة الشمس عليها.. ويتمشون بلا عمل، ويحتمون من نار شمس سوريا الحامية بظلال خيم صغيرة سوداء يحملونها فوق رؤوسهم.

في ذلك الوقت كان إسبر قد أنجز بعض التعديلات على مقر عمله الكئيب. وعند توجهه إلى بيته لتناول طعام الغداء مروراً بالسوق، رأى فرهود العجوز يحمل فوق رأسه خيمة غريبة مستديرة. جمد إسبر في مكانه وتفحص الرجل من رأسه إلى أخمص قدميه. ثم زعق في وجهه متجهماً:

ـ من أين لك هذا الشي؟ ما هذا؟ انظروا أيها الناس أي خيمة اشترى هذا! أتخاف من الذوبان؟ ألا تريد أن تموت؟ لا.. ستأتي إليّ مهما اختبأت من الشمس.. أتخاف من الشمس.. ها؟

سارع فرهود إلى الابتعاد عن عيني إسبر، طوى مظلته واختفى وراء زاوية. فمشى إسبر، رأى شيئاً يلمع على بطن ضاهر: ما هذا؟ – سأل إسبر بغضب.

ـ ساعة. – أجابه ضاهر وهو يحاول الابتعاد.

ـ ساعة؟! – صاح إسبر – وهل أنت أفندي؟ أأنت مسؤول كي تحتاج إلى ساعة؟ هل حمل أبوك ساعة؟! لا. عاش بلا ساعة، ودفنته بلا ساعة. هو كذلك لم يعرف كم سنة عاش على الأرض. وأنت تريدني أن أدفنك مع ساعة؟ سأقلعها عنك يا سيدي، سأقلعها! لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر ستكون محتاجاً إلى ساعة.. والله العظيم! يبدو أن الناس اليوم قد جنّوا.

مشى إسبر في السوق، نظر حوله إلى البطون المزينة بالساعات والسلاسل، بدت كثقوب لامعة في البطون لا تتحمل العين النظر إليها. وكل من رأى من المتمشين إسبر حاول أن يخفي الساعة بيده، ويدخل إلى الدكان الأقرب إليه. وكانت المظلات تسارع إلى الهرب منه نحو الأزقة الضيقة بين البيوت الرمادية.

أحد «الشجعان» كان منزعجاً من أن إسبر يدس أنفه في كل شيء، فتقدم منه بثقة محاولاً أن يسخر منه، وقال: خذ مني قرشاً يا إسبر وادفن حماري.. لقد مات المسكين اليوم!

رمق إسبر الشاب بنظرة تحدّ، وقال: حتى إن مت أنت، فلن تكون أكثر كلفة من حمارك. لكن يبدو أنك أكثر غباء منه، فسأدفنك مجاناً.

مشى إسبر، أحس أنه قتل الشاب.. ذهب مباشرة إلى المعلم، فأخبره بما رأى في البلدة. تحادثا طويلاً.. ثم في النهاية عاد باتجاه السوق، ونظر حوله بحدّة. ثم توجه إلى تاجر الأشياء الغريبة، واشترى ساعة ومظلة. سرعان ما انتشر الخبر في البلدة، حفار القبور اشترى ساعة ومظلة. تنفس الجميع الصعداء: الحمد لله، يعني أنه لن يعاتب أحداً الآن - فكر كل منهم بذلك.

لكن من الواضح أن إسبر كان يضمر شيئاً. لم يضع الساعة في جيبه لتتدلى سلسلتها على بطنه، ولا حمل المظلة فوق رأسه. بل مشى غاضباً عابساً.

يوم الأحد، بعد الغداء، كان السوق مكتظاً بالناس. علق الجميع الساعات

وحملوا المظلات، تمختروا عارضين بضائع ما وراء البحار. كم هم ملاعين الإفرنج، أي شيء لم يخترعوه بعد!

فجأة، وفي نهاية السوق، ظهر حفار القبور. مشى ببطء وتيقظ، كما لو أنه يمشي خلف نعش محمول لأحد الوجهاء. لكن ما هذا الذي إلى جانبه؟ أي وحش هذا؟

كان لدى إسبر كلب، اشتراه جرواً من كردستان. كانا يأكلان معاً، حتى أنه كان يضطجع إلى جانبه. كلاب تلك النواحي تتميز بقوة هائلة، بخفة الحركة وسرعة البديهة. كلب إسبر كان مهول المنظر، لم يكن كلباً بل أسداً. ضخم أحمر العينين أشعث الوبر، اعتاد التهادي باتئاد خلف صاحبه بين القبور، متأهباً ينتظر منه أي إشارة لينقض على إنسان أو شبح.

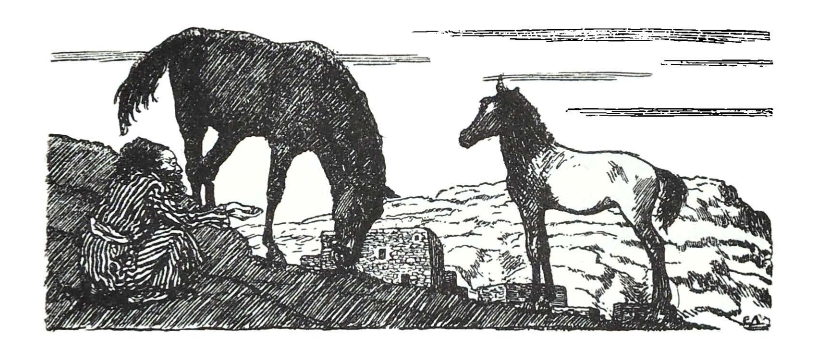
أما الآن فقد زيّن إسبر صديقه كما لو أنه يوم العيد: لفّ حول عنقه سلسلة الساعة، وحمل فوق رأسه الخيمة الدارجة. هكذا جالا معاً في السوق.

ولم يمض نصف ساعة حتى اختفت من السوق جميع المظلات والساعات.

حفار القبور - هوامش

* البشلك عملة معدنية عثمانية من الحديد الأبيض - النيكل، تساوي ثلاثة أو خمسة غروش. انظر: انظر: مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، رياض غنام - مصدر سابق، ص ٤٠٨. وخطط جبل عامل، محسن الحكيم - مصدر سابق، ص ١٤٠.

المصيبة وحيدة



ЕДИНСТВЕННАЯ НЕПРІЯТНОСТЬ

(١)

كان أبو وديع هانئاً في عيشته. بطبيعة الحال، ككل الناس كانت لديه مشاكل صغيرة، إلا أنّ تلك المشاكل ما كانت لتفسد رضاه العام عن مصيره. ومن المعروف أنّ المصير شيء يشبه الزوجة، ولا أحد يمكنه أن يكون راضياً عن زوجته. لكن أبا وديع كان راضياً تماماً عن مصيره، وكذلك عن زوجته. مع علمي أنّ قلة من الرجال يشعرون شعوره، وقد تكون لدى القارئ زوجة، وقد يكون راضياً عنها.. إلا أن كل واحد يرضى على طريقته.

أبو وديع كان راضياً عن زوجته، ليس لكونها فائقة الذكاء أو الجمال، ولو كانت كذلك لاعتبر الأمر إهانة.. بل لأنها كانت مدبرة منزل جيدة، تحقق بإخلاص جميع رغباته، والأهم من ذلك كله كانت تنجب له الأبناء باستمرار، الذكور فقط. وكان مقتنعاً بأن زوجته لا يمكنها أن تنجب شيئاً آخر. ولأنها حامل، كما هي عادتها، كان أبو وديع أثناء جلوسه الطويل خلف بسطة دكانه في السوق دائم البحث عن اسم يلائم ابنه المنتظر.

فقد سمّى ابنه الأول وديع، فصار هو أبا وديع، والثاني نصر دياب، والثالث مهيب، والرابع هندي، وهو اليوم ينتظر الخامس، ومنذ نحو شهر بدأ يبحث.. فأي اسم يلائمه؟ وحيد، مليح، فارس، كامل؟ لم يعجبه أي من تلك الأسماء. توجه إلى عالم الحيوانات والطيور، لعله يجد اسما.. غزال، نسر، نمر، شحرور، فهد، أو حتى أسد؟ لم يكن أي من تلك الأسماء ليشبع رغبة الوالد الفخور، عليه أن يجد اسماً يليق بالوريث الجديد. ومع ذلك لم يفقد الأمل في اختراع اسم يجعله موضع حسد في لبنان الشرقي كله.

لعل القارئ يفكر في أن ذلك لا يمكن أن يملأ حياة أبي وديع سعادة. نعم، فلو لم تكن لدى أبي وديع سعادة أخرى، لما كان راضياً تماماً عن مصيره. كانت لديه فرس رائعة، فرس غير عادية، تنحدر بنسبها من جواد شهير لدى أمير قبيلة بني هلال، الذي يعود بنسبه إلى قبيلة قريش. وعلى الرغم من أن أبا وديع مسيحي، لكن كان ينتفخ فخراً وهو يدعي أنه على ظهر أحد أسلاف فرسه كان يتنقل النبي محمد نفسه. وكان يحتفظ بوثيقة شجرة عائلة فرسه، ويسرد تفاصيلها أمام مستمعيه، ويختتم حديثه بأن فرسه بنسبها تثير الحسد في قلوب الجنرالات الأتراك.

لذلك كان أبو وديع دائم التودد إلى فرسه، يطعمها صباح مساء كيلاً من الشعير الصافي، ينظفها ويسقيها، وعندما يكون الطقس جيداً يطلقها لتسرح في القرية. كانت تتمشى في أزقة القرية الجبلية، تتسلق التلال وتنحدر إلى الوديان، قوية كالريح، رشيقة كغزال، ومرنة كسمكة. وتعود مع المساء إلى البيت لتطرق البوابة بفارغ الصبر.

لكن ما كان يُسعد أبا وديع على نحو خاص، أن الفرس كانت تنجب دائماً أفراساً، وتلك كانت ميزتها الرئيسة. وهي اليوم حامل، كما هي حال زوجته. وكان أبو وديع قد سبق له أن باع مهرتها المنتظرة إلى أحد الموسرين بعشر مجيديات.

فكما كانت زوجته تنجب الذكور، فرسه تنجب المهرات، لذلك أحبها أبو وديع وكانت عزيزة على قلبه. ويمكن القول إن حبه لها لم ينقص عن حبه لزوجته. كلتاهما استحقتا مقامهما، وأدخلتا البهجة إلى قلبه.

ولذلك، كان أبو وديع يتمتع بالاحترام. فالسعادة ثروة بالنسبه إليه. والإنسان السعيد، كما الغني، يحبه الناس أينما حلّ ويسعدون للقائه. بطبيعة الحال، يبدو أن الناس يرغبون فقط بالثروة، لكن إن منحوا شيئاً من السعادة والرضا عن حياتهم، قد لا يرغبون بالثروة حتى، فلمَ الثروة بوجود السعادة؟

لكن منذ تم انتهاك السعادة وراحة البال في الجنة – في بلاد ما بين النهرين البعيدة، حيث يمدّ الألمان اليوم سككهم الحديدية، لم تعد سعادة البشر لتكتمل.. ولم يعد الإنسان ليشعر بالطمأنينة إلى مصير قد تعكر صفوه منعطفات غير متوقعة تسوقها عجلة الحظ.

وللأسف، ذلك ما حصل لأبي وديع.

كان يجلس في السوق كعادته، وقد استفتح ببيع قطع قماش أزرق لنساء يردن خياطتها تنانير، وزجاجتي عطر بلا ماركة لامرأة.. كان يستخدم مثل ذلك العطر لصناعة سمّ للفئران عبر إضافة السكر إليه. وكذلك با ع عدداً من حبات التمر. وكان يدقق في النقود لمعرفة ما إذا كانت مغشوشة أم لا، ويفكر في اسم ابنه الخامس، الذي سيبصر النور بين اليوم والغد.. وفجأة قفز اسم بطل العرب وشاعرهم عنتر إلى ذهنه.

– رائع! صرخ، وانتفض في مكانه، رائع! رح سمّيه عنتر. اسم جديد، والأهم أنه قوي. سيقول أهل لبنان الشرقي إن لدى أبي وديع ابن اسمه عنتر. وسيتحدث الجميع، كيف أن الاسم يشرف الابن والأب. ممتاز! ارتفعت معنويات أبي وديع، فيما كان ابنه الرابع هندي يركض نحوه، وهو يقول: بيّي، خلّفت إمي، عجّلْ عَ البيت..

ضبضب أبو وديع الفرِح بسطته بسرعة، وأقفل دكانه على البضائع، وسار نحو البيت. في الطريق سأل ابنه: بتعرفْ كيف رحْ سمّي خيّك.. الصبي الجديد؟

نظر الولد إلى أبيه بحيرة، فكّر قليلاً ثم قال: بيّ، بدك تسمّيه صبي! ستي قالت إنّو إميّ خلّفت بنت..

حلّ الغضب على أبي وديع: كذّاب يا ابن مبارح! امّك جابت صبي، وانت يا خنزير بدّك ياها تجيب بنت، لأنك ما بتفهم. أنا ما بدّي.. فهمان! ما بدّي بنات!

وتملك الغضب من أبي وديع أكثر فأكثر، وأخذ الشك طريقه إلى قلبه. فكيف ستكون الحال إن كانت قد أنجبت بنتاً؟ وسيطر الانزعاج على نفسه، فكيف سمحت زوجته لنفسها بهذه الغلطة؟ وكلما كان يقترب خطوة من المنزل، كان يزداد عصبية. عشرون خطوة أمامه، بدت بطول برّ الشام. وأخيراً، ها هو أمام جدار منزله.

كان أبو وديع يتنفس بصعوبة، وكأنه تسلق قمة حرمون، وقد كتّه العرق كما لو أنه في الحمام. استجمع قواه، وهو يسمع من خلف الباب ضجة مخلوطة بصراخ نساء، طرق الباب.. للحظة أرادت قدماه أن تهربا إلى البعيد، لكن صبغة الخجل من ضعفه استوطنت وجهه، ثم لاحظ أنه ينتظر أمام باب لم يُفتح، فحلّ به السخط. ضرب المزلاج بقوة، أجبرت زوجته المتألمة على الصياح: افتحوا الباب، إجا زوجي..

في الغرفة حيث اضطجعت الزوجة، تحلقت حولها نسوة يثرثرن بأصوات عالية، فبدت له كما لو أنها غرفة مضخات مياه تعمل بكامل قوتها. توجه الرجل إلى امرأة تحمل الطفل بين يديها، خرج صوته مجروحاً: صبي؟

أجابت المرأة بصوت خفيض: لأ، محبة بالعدرا، بنت.. إذا الله راد بتجبلك ها البنت صبيّان كتير.

ازرقّ وجه أبي وديع. توجه نحو زوجته وعنّفها: يا بنت الشحادين، الله يقصّرْ عُمرك ويِخْرِب دينك! يا كلبة يا بنت الكلب! شو ما بتعرفي إنو ما بدي بنات؟ ما بتعرفي؟

هجم أبو وديع على زوجته، أراد أن يضربها، لكن النسوة منعنه من الوصول إليها: خاف الله! مرتك موجوعة يا بو وديع. اتركها هلّق، وبعدين فيك تعمل فيها لي بدّك ياه..

توقف أبو وديع. كان وجهه قد غدا أحمر، وبات يتنفس بصعوبة.. نعق في وجهها قبل أن يغادر الغرفة: انطريني.. إلي حساب معك..

النسوة رحن يخففن عن الزوجة النادبة حظها:

- مبسوطة بتكون يللي بتخلّف نسور، ومسكينة يللي بتخلف بنات - قالت إحداهن.

- لما بتخلق البنت، عتبة البيت بتحزن أربعين يوم - ردّت أخرى.

- بس لمّا بيخلق صبي، حتى ملايكة السما بتفرح - هتفت ثالثة.

نهضت زوجة أبي وديع بصعوبة، عاونتها النساء. غسلت الداية الطفلة بمياه دافئة كان قد صلى عليها كاهن الضيعة. فركت الجسم الصغير الأحمر بالملح والنبيذ. وكأن ذلك لتعوده على الواقع القاسي الذي ينتظره. أخذت امرأة الطفلة، رشت عليها الملح.. بين الساقين، على الرقبة، داخل الفم، حتى على العينين. ثم دعكته بقوة: انشالله ما بتمرضي بحياتك. قالت، وهي تحزم الملفة حول الجسم الصغير الطري. أعادت الطفلة إلى والدتها.

ستأتي الداية والنسوة غداً لتمليح الوليدة وبعد غد... ليتممن سبعة أيام.

أقارب ومعارف أبي وديع عرفوا بالأمر. فلم يأتوا لتهنئته، فالتهنئة بالبنت أمر مسيء لأي كان، فكيف لأبي وديع! النسوة تفرقن إلى منازلهن بسرعة، قبل أن يودّعن الطفلة ووالدتها: الحمد لله، الله ريحّك..

لم يبق في المنزل سوى زوجة أبي وديع. أبناؤه كانوا يلعبون في أزقة القرية، وهو يعود إلى السوق متجهماً. لم ينظر في وجوه الناس ولم يجرؤ على التحدث إليهم. كان يشعر بخجل شديد كما لو أنه اقترف جريمة. الغضب لم يخبُ في نفسه، وكان يضغط على قلبه كحجر. بجهد كبير استطاع أن يقعد على الأرض خلف بسطة الدكان حتى المغيب، في وحدة تامة. لم يقترب منه أي من المشترين، فالجميع عرفوا أن امرأته ولدت بنتاً. عاد متأخراً إلى منزله. لم يشأ أن يرى زوجته.

كان ينام بعيداً عنها ويقضي نهاراته في السوق، هكذا قضى وقته حتى حلّ الأحد. أصدقاء أبي وديع عرفوا بحزنه، فأتوا يروحون عنه. أتاه إبراهيم الحلاق، وقورشي اللحام، والكاهن حنا. دعاهم أبو وديع إلى سطح منزله، وضيّفهم العرق والبرتقال والقهوة.

تحدث الرجال عن آخر الأخبار الأوروبية، وعن اليابان، وارتفاع أسعار الخبز والزيتون، والعراك الأخير في القرية. وأخيراً، تناول الحديث مصيبة أبي وديع.

ـ كلّو من الله – قال الحلاق – الصبي من الله، والبنت من الله. إنت فكّر.. لوما بيخلقوا البنات ما كان في عندك وعندي نسوان.

ـ الله شاهد يا سيد إبراهيم – أجاب أبو وديع بحكمة – ومع هيك، لو إجتك بنت ما رح تكون مبسوط.

ـ ما رح كون مبسوط لأنو ما عندي صبيان – قال إبراهيم – بس إنت ما لازم تزعلْ، الله عاطيك أربع صبيان. بنت واحدة ما بتضرّ!

ـ يعلم الله إنو عم يحكي صحّ – قال الكاهن حنا، وهو يمسد لحيته بإصبعين.

بطبيعة الحال وافق أبو وديع: بس ما تعوّدت! صرخ وانهمرت الدموع من عينيه – أربع صبيان واحد ورا التاني، وهلق فجأة بتجيني مصيبة! بتعرفوا، متل ما بيقول المتل ابن ابنك ابنك، وابن بنتك للغريب. مش ناقصني إلا إنو الفرس كمان تجيب مهر!
ـ لا سمح الله ـ قال اللحّام ـ المهر خسارة، ما حدا بيشتريه هون، وبالشام بتبيعو ببلاش.

تقطب جبين أبي وديع. إذا بتجيب مهر بقوصها.. بدّك أبو وديع يروح يبيع المهر بالشام للعربجية! بعمري ما بعملها!

عبس أبو وديع.

طمأنه الكاهن: انشالله ما بيصير إلا متل ما بتحبّ - وقبض على لحيته من جديد وراح يمسدها.

ـ طيب، كيف صحة مراتك؟ - سأله اللحام؟

ـ ما بعرف.. ما شفتها.. - أجاب أبو وديع - منيحة.. شو بها؟

ـ لَه يا بو وديع.. متل ما بيقولوا: كون منيح مع المخطي بيصير عبدك.

ـ قابل الخير بالشرّ، بينمحي الشر - زاده الكاهن.

ـ لم يجب أبو وديع بشيء. جلس الضيوف تحدثوا في شؤون أخرى. ثم تفرقوا.

(٣)

كانت ولادة الفرس وشيكة.

انتظر أبو وديع هذا الحدث بقلق شديد. فقد مرّ بانتكاسة كبرى في حياته، ولم يعد بمقدوره النظر بعيني الثقة إلى الآتي. زوجته أنجبت بنتاً - لنفرض أنها صدفة عابرة، لكن بالصدفة أيضاً قد تأتيه الفرس بمهر - جافاه النوم، كان في انتظار وقلق دائمين، صار نحيلاً، دائم التجهم والغضب. أخذ ينظر إلى المسدس المحشو المعلق على جدار الغرفة، ويفكر.. إذا ما فكرت الفرس بخديعته، كما فعلت زوجته، سيفرغ كامل الأسى المتراكم في قلبه دفعة واحدة.

في الليل، كان أبو وديع منهكاً من الأرق يتقلب على سريره، سمع طرقة غير معتادة من الحظيرة وصهيلاً. بدأ قلبه ينبض بقوة. الفرس تلد.. مهرة أم مهر.. فرس أم حصان.. بنت أم صبي؟
انتزع أبو وديع المسدس المحشو من الجدار، وركض نحو الإسطبل حافي القدمين ليس عليه سوى قميص. كانت الظلمة تلف المكان، رأى الفرس مضطجعة على الأرض تلعق شيئاً أسود.

- يمكن صبي! - ومض شيء في رأس أبي وديع.. أزاح ترباس المسدس، وصاح صيحة سمعها كل سكان لبنان الشرقي: وديييييع.. جيب الفانوس!

بغض النظر عن استغراق وديع في سابع نومة، إلا أن صيحة أبيه المجنونة أيقظته، فركض يبحث عن الفانوس. ثم هرع إلى أبيه. على عتبة الغرفة رأى أباه شاهراً مسدسه، يرتجف من الغضب، محمر الوجه يتطاير الشرر من عينيه.
- تعا لهون! - زعق أبو وديع.

لحظة. رمى أبو وديع المسدس على السماد. هرع إلى الفرس لف ذراعه حول رقبتها وصار يداعبها، قبّلها في جبينها الساخن.. والفرس المتعبة صارت تمسح وجهها بكم قميصه. وعادت إلى لعق صغيرها. لكن أبا وديع لم يتركها، مسد رقبتها وظهرها وغرتها وأذنيها وهو يردد:

ـ حبيبتي، يا حبيبتي.. كنت ميت ورديتيني ع الحياة.. أنا مبسوط من جديد.

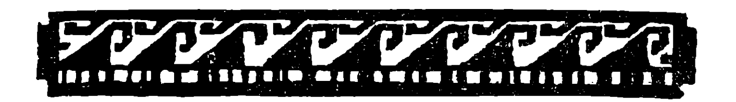
ومنذ ذلك الحين عادت السعادة إلى أبي وديع. استرد الطمأنينة.. سامح زوجته على غلطتها، وسمّى ابنته – المصيبة «وحيدة».

المصيبة وحيدة - هوامش

* الليرة المجيدية، عملة ذهبية ضربت أيام السلطان عبد المجيد، تساوي ١٢٣ قرشاً. انظر: مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، رياض غنام - مصدر سابق، ص ٤٠٨. وخطط جبل عامل، محسن الحكيم - مصدر سابق ص ١٤٠.
* حصلت المانيا سنة ١٨٩٩ على امتياز من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يخولها مدّ خط سكة حديد الأناضول من اسطنبول إلى الموصل ومنها إلى العراق. وعُرف الخط بسكة الباءات الثلاث: البصرة، بغداد، برلين. إلا أن الشق العراقي من المشروع لم ينفذ إلا سنة ١٩١٢، حين وصلت أول شحنة من مواد، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى كان الخط العريض للسكة بين بغداد وسامراء قد تم إنشاؤه. انظر: قصة السكك الحديد العراقية، إبراهيم العلاف (بغداد: جريدة المدى - ملحق ذاكرة عراقية، عدد ٢٤ أيار/ مايو ٢٠١٥). أما ربط كوندوروشكين بين الجنة وبلاد ما بين النهرين، فيعود إلى الموروث الشعبي، كون «ميزوبوتاميا» هي «جنة عدن» المذكورة في التوراة، وأحد روافدها نهر الفرات (تكوين ٢، ١٠-١٤).

* تمليح المولود: ورد في العادات عادة التمليح والريحنة «وتظل القابلة إلى بضعة أيام تتردد صبح مساء إلى بيت الواضعة للاهتمام بها وبطفلها، مستطردة تمليحه أي غسله بالماء الملح، وترحينه أي تمرغ جسده بالريحان الملتوت بالزيت، وتطيّع أعضاءه وتحنكه أي توسع حنكه». انظر: العادات والتقاليد اللبنانية، لحد خاطر ج١. والتمليح غير مختص بالأنثى ولم يُذكر شيء في العادات عن الخمر. انظر كذلك: الأخلاق والعادات اللبنانية، عيسى اسكندر المعلوف، ضمن لبنان مباحث علمية واجتماعية بهمة اسماعيل حقي بك ١٩١٨ (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ط١: ١٩٦٩) ج١.

انكليزية



АНГЛИЧАНКА

في القنصلية الروسية في بيروت، التقيت صدفة بأحد معارفي القدامى المهندس بيوتر سرغيفيتش سيتشيوف. يبدو أن هناك من زيّن له فكرة السفر إلى سوريا وفلسطين، ففعل.

- بلاد رائعة بشكل مدهش! - صاح سيتشيوف - بالتأكيد أنا على المريخ. أنا سعيد بلقائك! تبدو وكأنك صرت عربيا بالكامل بعيشك هنا.. خذني تحت جناحيك. أنا أريد أن أسافر إلى بعلبك. أريد أن أشاهد معجزة العمارة القديمة.

بيوتر سرغيفيتش كان شخصا ذكياً ومثقفاً، في عالم النساء كان فائق الاحترام والدقة، أما في عالم الرجال فكان وضيعاً مبتذلاً. كنت سعيداً بإمكانية تجاذب أطراف الحديث معه حول الحياة الروسية، فوافقت على مرافقته إلى بعلبك على الرغم من أني كنت قد زرتها غير مرة.

صباح اليوم التالي، ركبنا في إحدى مقصورات قطار السكك الحديدة الفرنسية المتسلقة جبل لبنان. تهادى القطار بين بساتين الليمون والبرتقال، واخترق عرائش العنب قرب الصخور المتشربة بالحمرة. وكلما ارتفع بنا القطار عن سطح البحر، كان يتسع الوشاح الأزرق للبحر المتوسط أكثر فأكثر.

ـ لا يمكنك أن تصدق أي متعة في السفر إلى حيث لا يعرفك أحد، وألا تكون مجبراً على اتباع الآداب أو التزام الاتيكيت. كأني ولدت من جديد. أما أنت فيعرفك الجميع هنا.. لدي متعة وحيدة، لا شروط ولا اعتبارات ولا كذب أو تملق.. لقد تعبت من ذلك حتى الموت في الوطن. أما الأهم هنا، فيمكنك أن تتحدث بصوت عال بلغتك الأم ولن يفهمك أحد. قل ما شئت.. ولا داعي لتنميق الكلام.. أليست متعة!

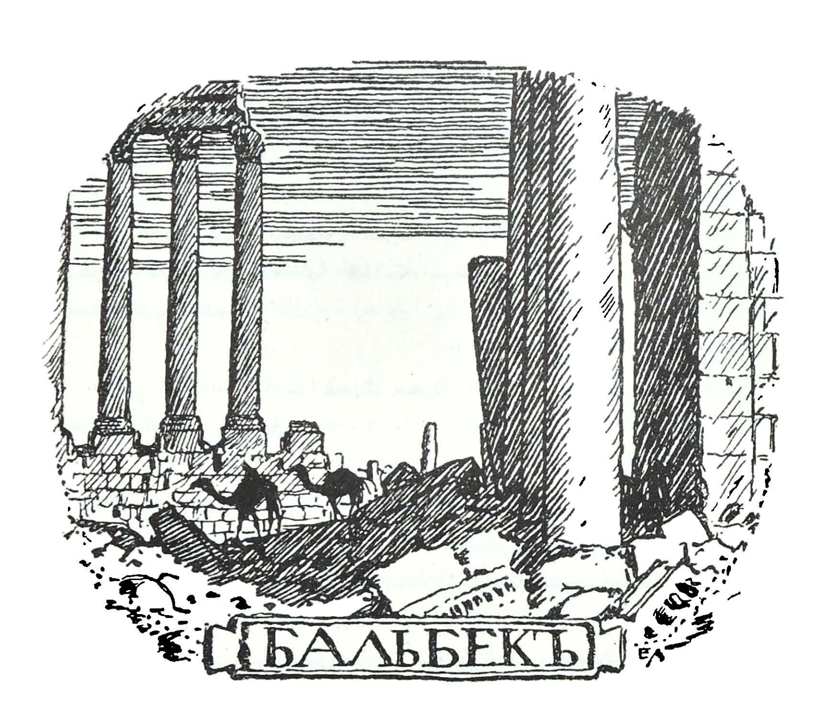
في البداية، جلسنا وحيدين أنا وبيوتر سرغيفيتش في المقصورة، لكن في إحدى المحطات غير البعيدة عن بيروت انضمت إلينا سيدة. لديها وجه حصان مقعر الجانبين، وأسنان طويلة بارزة كالقوارض. أما عيناها فمتقاربتان جاحظتان. ولها جذع خشبي نحيل. على الفور لاحظ فيها سيتشيوف ملامح النساء الإنكليزيات:

ـ حسناً، انظر.. أتانا الشيطان بإنكليزية. أي وجه هذا؟ أي مصيبة.. أسنانها، انظر أسنانها!

جلست الإنكليزية قبالتنا. ضمت تنورتها بتواضع، ونظرت إلينا بإمعان وهدوء.

ـ انظر! ها هي جلست وتحدق فيك.. تريد أن تقفز على ركبتيك..

ـ اهدأ من فضلك، بيوتر سرغيفيتش، من أين لك أن تعرف من هي، وماذا تريد أن تفعل؟


БАЛЬБЕКЪ

ـ أنا أرى.. ما قصدك بإهدأ؟ أرى أنك أعجبتها فوراً. الإنكليزيات يحببن الروس. هي تنظر إليك.. انظر. لكن أي سعادة من وراء ذلك.. أسنانها، أرى أنها ستلتهمك كوجبة خفيفة أثناء إثارتها.

ـ توقف.. أرجوك! عيب عليك!

ـ ليس عيباً.. وفيم العيب. ألا ترى؟! ليس عيباً.. أم أنك صرت الأمير ذا الأخلاق؟

في المحطة خرج المهندس. نظرت إليّ الإنكليزية بعينيها الجاحظتين، ثم أخرجت كتاباً من محفظتها. فلفشته، ثم شرعت في مطالعته. عاد المهندس بسلة عنب وقطف موز.

ـ هي تقرأ الكتب كذلك! قصتك محزنة يا صديقي.. لا أثق بالنساء اللواتي يقرأن الكتب في الطريق.

أكل سيتشيوف بعض العنب والموز، وتحدث طويلاً عن الإنكليزية، عن كل شيء فيها، بسفالة أحياناً، ثم غدا يتحدث كيف يجب أن يكون جسمها، رجلاها، كتفاها.. وكلما كنت أبدي ملاحظة بشأن تصرفاته كان يسخر مني.. فسكتُّ.

كان القطار قد تسلق جبل لبنان. سرح بيوتر سيرغيفيتش بناظريه، انغمس في روعة المشهد المؤطر بشباك المقطورة. البيوت كانت منثورة على الجبال كأزهار، كانت ملفتة بقرميدها الأحمر وحولها الأشجار الغارقة في الخضرة، وبينها نتوءات صخور رمادية. في المرفأ البعيد بدت السفن والقوارب كخنافس فوق زجاج.. إلى الشمال القمم الصخرية الشاهقة القاتمة، تنتصب إحداها خلف أختها.. وترسل بأشباح البرد. ومن الزاوية الإفريقية للمتوسط تسطع الشمس كفضة منصهرة فوق صفحة الماء.

تفرس بيوتر سرغيفيتش في المشهد، وكانت تصدر عنه بين الحين والآخر شهقات استهجان أمام روعة الطبيعة.. ثم نظر من جديد إلى الإنكليزية، وقال: حسناً، أي وجه هذا، الذي أرسله الله إلينا؟ بعد سحر الطبيعة هل يجب علينا أن ننظر إليها؟

عبرنا جبال لبنان، وصرنا ننحدر نحو سهل البقاع، حيث يتجه فرع من السكة الحديدية نحو بعلبك وما بعدها شمالاً. قبل المحطة الرئيسة في رياق، حيث علينا أن نترك القطار وننتقل إلى آخر، أتى المراقب لجمع التذاكر، فاتضح أن الإنكليزية تتجه إلى بعلبك مثلنا.

بدأ سيتشيوف بالسخرية من جديد: أي سعادة هذه؟ الشيطان يرسلها إلى بعلبك. أنا متأكد أنها ستكون معنا في المقصورة طوال الطريق. وفي بعلبك لن تتركنا وشأننا.. أنا أعرف الإنكليزيات.

وصلنا إلى المحطة. خرج الجميع. هرع سيتشيوف إلى المطعم، أما أنا فبقيت على منصة الانتظار. رفيقتنا، التي لا تتحدث شيئاً من العربية على ما يبدو، وقفت وسط حشد من الناس حاملة حقيبة يدها.. نظرت حولها بارتباك، كما لو أنها تبحث عن شيء. دنوت منها وبادرتها بالفرنسية، سألتها إن كنت أستطيع مساعدتها بشيء. التفت الفتاة إليّ، بثقة، وقالت بروسية لا شائبة فيها: من فضلك، أريد إرسال أمتعتي إلى دمشق، أما أنا فمتوجهة إلى بعلبك.

شعرت كما لو أن كلماتها نزلت عليّ كماء مغلي. خجلت من الحديث الذي دار في القطار. ومع ذلك، سلمت المراقب الإيصال، وطلبت منه أن يرسل الأمتعة إلى دمشق. ومشينا معاً على المنصة.

ـ من الصعب، طبعاً، أن أطلب عذراً على حديثنا في المقصورة..

ـ دع عنك ذلك - لوحت بيدها - غالباً ما نعتقد أن من يجلس بقربنا شرير أو مثير للاشمئزاز، ولا نعبّر عن ذلك. لكن رفيقك عبّر بحرية. أنا لم أتأثر.. لم تقلقني كلماته، لكني كنت سعيدة فقط من دفاعك عني.

ـ عفواً، لكن لمَ لم تخبرينا أنك روسية؟ - سألتها بلوم خفيّ.

ـ نعم، في البداية لم أجرؤ، لكن بعدها شعرت بالأسف على صديقك. فالأمر على ما أعتقد سيكون محرجاً للغاية.. وأن أسمع عن نفسي كل آرائه المجنونة، أسهل بكثير من أن تصل آراؤه إلى ما يبغيه منها. لذلك فضلت السكوت.

في ذلك الوقت سمعت صوت بيوتر سرغيفيتش من خلفي. بدا صوته مقرفاً، كم لو أنه لم يكن صوت إنسان أبداً. لحق بنا وقال: حسناً ها أنتما، كنت أعرف، تعارفتما.. لذلك، اليوم ستنامان في الغرفة عينها..

لو أن المهندس أطلق النار على ظهري لكان أرحم من كلماته المتوحشة. لتحملت الطلقات. فكلماته أكثر قسوة منها. حركت أصابعي خلف ظهري بحركات مختلفة، لعله يفهم.. لكن في تلك اللحظة كان غبياً متعجرفاً..

ـ نعم، لا تحرك أصابعك خلف ظهرك.. أنا أعرف كل هذه النكات.

وخوفاً من سماع أشياء أسوأ، توقفت واستدرت نحوه، قلت بلسان عظمي:

ـ اسمحي لي أن أقدم لك رفيقي بيوتر سرغيفيتش سيتشيوف.

مدت يدها، نظرت إليه بعينيها الجاحظتين الفضوليتين، وقالت بصوت يشوبه التردد:

ـ سعيدة جداً.. يعني أننا جميعاً متجهون نحو بعلبك..

للحظة جمد سيتشيوف في مكانه، تحسس وجهه، هل سمع حقاً ما سمع. ثم فجأة، انخفضت نبرة صوته، باتت ذليلة، تمتم بكلمات غير مفهومة: بالطبع.. بالروسية، كما تعلمان.. أحياناً، تشرفت. ثم خرجت كلمات أخرى بيأس: أوه، أمتعتي هناك.. وركض جانبياً إلى مكان ما، كأرنب جريح. بحثت عنه في المحطة. وجدته قابعاً في زاوية بعيدة، لم يرد تركها.

ـ هي ذاهبة إلى بعلبك؟

ـ نعم..

ـ لن أذهب إلى هناك. دعنا نذهب إلى دمشق يا عزيزي.. من أجل الله.

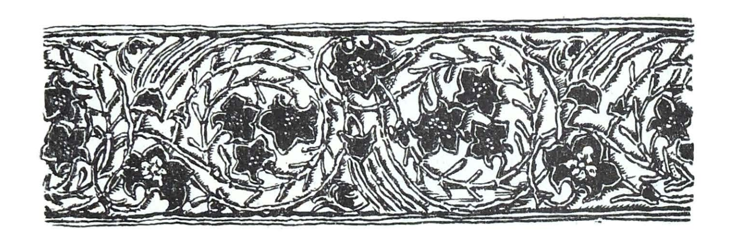
ودّعت «الإنكليزية»، وتوجهت مع المهندس إلى قطار دمشق. أحس بيوتر سرغيفيتش بانحراف في صحته، رافقه ذلك الشعور يوماً كاملاً، لم يأكل شيئاً وكان شديد التوتر.

في المساء، في بيتي الدمشقي، كنا قد تمددنا على سريرين. بدا سيتشيوف نائماً، وأنا كذلك كنت أوطّن نفسي للنوم. لكنه قفز على السرير فجأة، ممسكا شعره بيده.

ـ جميعكن إنكليزيات، فليأخذكن الشيطان.. جميعكن نساء كالإنكليزيات.. لقد تظاهرتْ فقط بعدم الفهم.. وأنت - هاجمني - انظر، أنت قديس.. تبدو لائقاً وشريفاً وصادقاً.. وتنام بسلام.. لكن انظر إلى داخل كل واحد منا.. نحترق من العار.

ثم تقلب على السرير كما لو أن ألماً شديداً في البطن أصابه.

عرفت عرفت!



УЗНАЛЪ, УЗНАЛЪ!

ـ سبحان الله! يا ليتني في البيت الآن.

فكر أبو رشيد في طريق عودته من المطحنة باتجاه بلدته مع حماره. كان قد انطلق منذ الفجر إلى ضفة الليطاني، ذلك النهر الملتف حول جبال لبنان. هناك أمضى كامل نهاره تقريباً. أنهى المهمة الموكلة إليه من زوجته، أن يطحن شوال قمح وأن يعود إليها بالطحين.

والآن فقط، في المساء، انتهى من ذلك. وها هو يعود ببطء غراب نوح باتجاه راشيا.. باتجاه ثلوج حرمون. فكّر في لو أنه كان في منزله الآن، لجلس إلى جانب منقل الفحم، لأكل، لشرب كوباً من القهوة، لدخن نرجيلة قبل أن ينام.

لكن الطريق نحو راشيا طويلة. وفوق الجبال كانت الغيوم تسير بلا طرق، تنظر إليه. تتهادى نحو السهل، ربما تبحث عن السعادة المفقودة. أما الريح فكانت تصفر في الشقوق الصخرية، وتلسع بحبات المطر التي تحملها ساقي أبي رشيد العاريتين. تجلده جلد مسؤول تركي غاضب لعدم دفعه الضرائب.

زحفت العتمة، كم هو شقي أبو رشيد لأنه ليس في بيته. لكن كان من الواضح أنه لن يتمكن من الوصول إلى راشيا هذه الليلة. تعب الحمار تحت ثقل الطحين وصاحبه. شعر أبو رشيد بالبرد يدهمه كضيف متطفل يتسلل من ثقوب عباءته المهترئة.

- سأقضي الليل في بكّيفا.. ليست بعيدة. وغداً سأكون في راشيا.

قرر أبو رشيد ذلك، ثم غرق في أفكاره من جديد. تلمّس كيس الطحين، ثم رفع رأسه وفكر. لكن فيم كان أبو رشيد يفكر؟ ذلك لم يكن ليحزره أعظم حكماء العرب. كانت الأفكار تجوب رأسه كما يجوب المتسولون المكفوفون القرى ويقفون عند كل عتبة يطلبون عطاء. من الصعب قراءة أفكاره من تعابير وجهه، الذي بدا كنقش فوق ضريح أشوري.

في الطريق نحو بكيفا، كان أبو رشيد مطمئناً إلى أن حماره يفكر نفس تفكيره. بل أكثر منه كان الحمار يريد قضاء الليل في أي مكان قريب، فلا زوجة للحمار في راشيا، ولا أبناء أو بنات.



كان الرجل على اتفاق مع حماره وعلى دراية برغباته كلها، وفي المقابل كيف كان للحمار ألا يفهم رغبات أبي رشيد وقد عاشا معاً على الحلوة والمرة ردحاً من الزمن. حتى أن مزاجيهما كانا متقاربين.. الآن ها هو الحمار يشعر بالحزن كأبي رشيد، فبات يلوح بأذنيه الطويلتين.

سار الحمار بأبي رشيد وشوال الطحين مسافة طويلة. كانت الغيوم تتجمع فوق رأسيهما، تلامسهما فيخترقانها. ومن السماء إلى الأرض امتدت خيوط بيضاء طويلة من المطر. بللت أبا رشيد من رأسه إلى مداسه، الذي انتعله على قدمين حافيتين. بات الجو أبرد فأبرد.

في كانون الثاني تبدو سلسلة الجبال الشرقية كئيبة. أين اختفت الشمس.. إلى أين ذهبت؟ هل ستنتشر أشعتها من جديد برفق فوق الجبال؟ هل ستدب الحياة في كل شيء؟ كل شيء في الجوار رمادي.. أمرٌ محزن. الصخور تبكي دموعاً باردة وتمسح وجناتها بضباب أبيض. لكن لماذا تراها تبكي؟ هل هي مشتاقة إلى الصيف الحار أم إلى الربيع الأخضر؟

سار الحمار قاطعاً مسافة طويلة. فكر بهمومه، وفوقه أبو رشيد. وأخيراً توقف. رفع أبو رشيد رأسه. رأى بيتاً ما يقف أمامه في العتمة. قشرة رقيقة من الثلج كانت تغطي هيكلاً أحجاره رمادية.

ـ الحمد لله رب العالمين. ـ قال أبو رشيد ـ ها قد وصلنا إلى بكيفا، وغداً نكون في راشيا.

نظر الحمار إلى صاحبه مستغرباً قدرة عقله التحليلية. كان يريد التخلص من عبئه وعبء شوال الطحين. أعتقه أبو رشيد من الحمل. بحث للشوال عن مكان جاف، وضعه فيه. بحث في الخرج عن صرّة المرقوق، ثم اتجه إلى البيت. على العتبة التقى بامرأة، بدت وكأنها صاحبة البيت، وكانت ترمي بعض النفايات فأصابت، ربما عن غير قصد منها، لحية أبي رشيد. غضب أبو رشيد من الإهانة التي لحقت بلحيته.. سبّ المرأة في سرّه، إلا أنه لم يجرؤ أن يكشف غضبه. بادرها بكل تواضع: ليلتك سعيدة سيدتي! اسمحي لي ولحماري بالمبيت عندكم الليلة. قالت صاحبة البيت: «ادخل!». ثم خرجت.

عندما مرت المرأة بجانب أبي رشيد بدا له وكأنها شديدة الشبه بزوجته.. تعجب من ذلك. أخذ رغيفاً من المرقوق، جلس قرب الباب وازدرد ببطء عشاءه الجاف.

ركض أولاد إلى البيت، وعادت المرأة. حملت صدراً نحاسياً كبيراً، وضعته وسط الغرفة فوق حجر. فوقه وضعت الخبز والجبن واللبن، وأضاءت السراج. حول الصدر تحلق الأطفال يتعشون. تبددت العتمة شيئاً فشيئاً، نظر أبو رشيد: والأطفال، بالضبط كأطفالي – فكّر – كبيرهم مثل ابني رشيد، والثاني مثل فراس، والثالث مثل نجيب.. حتى البنت تبدو مثل فدوى! سبحان الله! لا حول ولا قوة إلا بالله! لا ينقص إلا أن يكون زوج هذه المرأة يشبهني كما هي تشبه زوجتي، وأولاده يشبهون أولادي. لكن تبدو امرأة فقيرة، أرملة – قرر ذلك أبو رشيد وغرق من جديد في أفكاره – قد يكون لديها كذلك حمار مثل حماري.

عندما دهمته هذه الفكرة ابتسم أبو رشيد، تجعد جبينه ولوى فمه، بدا كما لو انه يتحضر للبكاء. فالناس يمكن أن يتشابهوا، أما الحمير.. أبداً. لم يقع أبو رشيد في موقف مشابه. فكل حمار يختلف عن باقي الحمير بشيء ما، حتى عن أخوته.

أخيراً قالت صاحبة البيت: ما أمرك يا أبا رشيد، لَمَ لم تتناول العشاء مع الأولاد؟ لماذا تجلس قرب الباب؟

فكّر أبو رشيد: تعرف اسمي أيضاً! وقال: الله يكثر خيرك سيدتي! أنا تعشيت. والآن أريد أن أنام.

صمتت المرأة، وهي تنظر باستغراب ناحية أبي رشيد. تعشى الأولاد. خرج أبو رشيد يتفحص حماره. فرشت المرأة فراشين، وضعت على أطرافهما الأولاد. دخل أبو رشيد وتموضع قرب عتبة الباب.

– تعال إلى هنا.. استلق هنا يا أبا رشيد – قالت المرأة – لماذا تريد أن تنام على عتبة البيت؟

– أطلب السماح من الله يا سيدتي. أنا لست من أولئك القوم.. سأنام قرب الباب، وأنت نامي لوحدك بسلام. لديّ في راشيا زوجة وأولاد.

– لا بد أن البرد أثّر على دماغ أبي رشيد، لقد فقد عقله – فكرت المرأة ثم نامت.

في الصباح، كان الجو صافياً. ما أن كللت الشمس رأس حرمون الشائب حتى اختفت الزرقة الكئيبة في تشعباته. كان أبو رشيد قد استيقظ وخرج من الغرفة. وضع الشوال على ظهر حماره، وثبت الحبل الملتف حول الكيس بمسامير الخشبية تحت الذيل، كي يستطيع الحمار التحرك بسرعة. حك ظهره بقوة، شد الحزام على بطنه، وكان على وشك المغادرة حين أطلت مضيفته. نظر إليها أبو رشيد ولسانه يلهج بالشكر:

ـ الله يكثر خيرك يا سيدتي! الله يطول بعمرك! الله يحفظك ويحفظ اولادك وقرايبك على كرمك. أنا والحمار ارتحنا عندك كأننا في الجنة، والآن من بعد إذنك رايحين ع راشيا...

قبل أن يكمل أبو رشيد كلامه كانت المرأة قد شرعت في البكاء لسبب ما، ثم بدأت بالصراخ قبل أن تهرب من فناء المنزل. كل ما استطاع أبو رشيد فهمه من كلامها:

- يا ربي، زوجي! يا ربي ما الذي حدث له!..

يبدو أنها تذكرت زوجها، مسكينة هذه المرأة - فكر أبو رشيد، وأراد أن يغادر فناء المنزل بأقصى سرعة. إلا أنه ما أن ركب حماره حتى عادت المرأة برفقة بضع نساء ورجل. أحاطوا بأبي رشيد وحماره، وبدأوا بالصراخ والتلويح بأيديهم. أبو رشيد الجالس فوق حماره لم يفقه شيئاً مما يجري حوله. سمع عويل المرأة التي تشبه زوجته ورآها تلطم صدرها. صوتها بدا شبيها بصوت زوجته بشكل مرعب، صوت رفيع عال، أعلى من أكثر مآذن الشام ارتفاعاً.. بدت تماماً كزوجته وهي تبكي وتولول عندما كان يموت أطفالهما. وقد مات لديهما عدد من الأطفال. لم يذكر أبو رشيد عددهم بالضبط، فهو لم يحسبهم، لكن على كل حال كان ذلك أمراً مؤسفاً. أراد أن يفكر بأسى بأطفاله الموتى، لكن إحدى النساء صرخت تحت أذنه مباشرة:

- هل جننت، أذهب عقلك؟ يا إلهي! ألا يمكنك التعرف إلى منزلك وزوجتك وأولادك؟ لا بد أن الشيطان ركبك في المطحنة!..

لكن الرجل المرافق للنساء تعامل مع القضية بسهولة أكثر، تقدم من أبي رشيد وسأله:

ـ ما قصتك يا رجل؟ أتسخر من زوجتك أم انك سكران؟ أتيت إلى منزلك في راشيا، وتقول إنك نمت في بكّيفا...

لم ينه الرجل كلماته حتى ارتد إلى الخلف ثم انقض على أبي رشيد ولكمه مباشرة على أذنه. طار أبو رشيد عن ظهر الحمار ووقع على الأرض. ثم نهض ببطء، نفض شرواله وطربوشه، حكّ أسفل بطنه، وسأل:

ـ لماذا ضربتني؟

ـ ألم تفهم؟ آخ.. لم أنته منك بعد! هذا منزلك وهذه زوجتك وهؤلاء أطفالك! ألا ترى؟! – ثم أراد الانقضاض على أبي رشيد مرة أخرى.

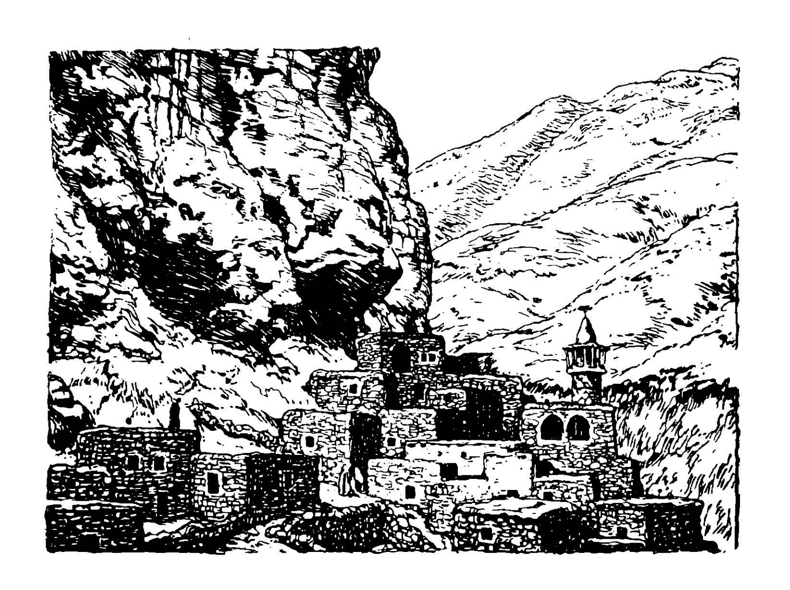
ـ يا إلهي – صرخ أبو رشيد – إيه فهمت، فهمت! لا تضربني! فهمت، اعتقدت أنني في بكيفا.

ـ فهم! – بفرح هتفت النسوة – الحمد لله يا أم رشيد، زوجك عرفك!

بدأ الناس ينفضون من حول أبي رشيد، أعاد أبو رشيد الحمار إلى مربطه، رفع عنه شوال الطحين وحمله إلى البيت. هناك تفرس في المكان بحدة، وقف لفترة طويلة يحدق، ثم قال:

ـ سبحان الله، بيتي وامرأتي وأولادي! لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!..

شاهين هدلا



ШАГИНЪ ХАДЛЯ

(١)

بالقرب من جبل الشيخ القديم، غربَ قبعته الثلجية، تنتصب هضبة مرتفعة، لا يفصل بينها وبينه سوى ممر صغير. الهضبة وحرمون يبدوان كأب وابنته، تزينهما أكوام من الصخور المبعثرة التي تخفيها عن الأعين، أحياناً، سنديانات نادرة متمردة. كأب وابنته بلونهما الرمادي، بمنحدراتهما ووديانهما، لديهما سحنة أبوهما البريّ القاسي - لبنان الشرقي.

ناس تلك الأصقاع رماديون قساة، كالصخور المحيطة بهم. قراهم المنثورة على السفوح وحواف الوديان تشبههم.. الحمير هناك رمادية كذلك، والماعز، والغيوم. الصخور الرمادية تقهر بحنق أي لون للحياة، أي خضار. تثقل من فوق على كتل أشجار الحور النحيلة المتراصة في الوديان قرب مجاري الينابيع. الصخور المهيبة تبدو مستعدة للانقضاض على كل ما هو تحتها، فتسحق شرارة الحياة الوحيدة في أمنا الطبيعة. هنا مملكة الأحجار، مملكة اللون الرمادي الميت، مملكة زفير حرمون البارد، الذي لا ينزع قبعته الثلجية عن رأسه طيلة أيام السنة، ويحدق متجهما إلى جميع أنحاء المعمورة.

تقريباً، قرب قمة التلة الحرمونية، فوق منحدر حاد تلتصق قرية صغيرة بالصخور اسمها شبعا. لبيوتها جدران أمامية فقط، أما الجدران الأخرى فتبدو غارقة في المنحدر الجبلي الحاد. السطوح الملساء تلتصق أطرافها بالأرض. سطح كل بيت عند أقدام البيت المنتصب فوقه، ما يمنح البلدة مظهر درج كبير ذي درجات ملساء. شتاءً، فوق تلك الدرجات - السطوح، تتلاعب التيارات الهوائية الجبلية بالأمطار ناثرة رغوتها العاصفة. في الأعالي، فوق القرية تلوح الصخور الرمادية المروعة، تبدو وكأنها تسخر من الناس، وتلزمهم بخوف مستمر، تجثم فوق رؤوسهم ككابوس مرعب، ولسان حالها يقول: «إن أردنا لتدحرجنا على أعشاشكم، ولسحقناها في دقيقة». قبل مدة، انفصلت إحدى الصخور بالفعل، وتدحرجت نحو القرية، فشقت فيها درباً شبه مستقيمة..

سحقت في طريقها الناس وحيواناتهم، لتستقر بهدوء أسفل الوادي، وكأنها وصلت إلى سعادتها المنشودة. المنازل المهدمة أعيد بناء بعضها تدريجياً في الأماكن عينها، فخرّب انتصابها أثر الصخرة المدمرة. وفاقت الولادات في القرية عدد الذين قضوا في المأساة، وسرعان ما ضمدت شبعا جراحها ودبت الحياة فيها من جديد.

بيوت شبعا تنحدر من أعلى الهضبة نحو الشرق باتجاه حرمون، وقبل وصولها إلى المنحدر الشاهق تتوقف لتصطف في سلسلة طويلة قرب جرف غير عميق. هناك، في الأسفل تحت القرية، يندفع من أحد كهوف حرمون نبع مثلج جبّار، يتدفق فوق الصخور ويحمل معه أسباب الخضار إلى مجرى يشقه في الصخر. المياه تقفز هادرة من صخرة إلى أخرى، مالئة الجبال بصخب الحياة. يتدفق الزبد الأبيض على امتداد المجرى، وكأن آلاف الخراف تثغو بحماس وتتقافز فوق بعضها البعض بتهور. ذلك النبع يروي شبعا، ويدير طاحونة متواضعة قرب مجراه، ويبدو أنه السبب الوحيد لوجود القرية فوق تلك المرتفعات المنيعة.

ففي الواقع، لا سبب يدعو الناس للعيش في هذا المكان. مكان صيفه رمادي، وشتاؤه غيوم داكنة أو طبقة كثيفة من الثلوج. ولا يظهر من السماء سوى شريط يتراءى من خلف حرمون. الجبل يحجب عن شبعا العالم كله، وهو مرتع للثعالب وبنات آوى والدببة البنية. تتسلل الوحوش مع الليل إلى القرية، تتنزه فوق سطوح البيوت وتتقاتل مع الكلاب الحارسة، أما الناس فلا تمسهم. لكن مِن المعروف مَن هو الأكثر رعباً من الوحوش.. وحوش البشر. بلا ريب، الناس هنا قساة أجلاف كما الحيوانات المفترسة. كلامهم صياح عال، ذو بحة، صلف كالنباح. يفتقرون إلى الأدب، مظهرهم عبوس لا يوحي بالثقة.

يعيشون منعزلين عن القرى المحيطة بهم، لا يلتقون إلا ببعضهم البعض، يحمدون الله ويصلون على نبيه محمد، كما جميع المؤمنين على وجه البسيطة. ما يعرفونه حق المعرفة أن ما بعد الموت أفضل بكثير من الحياة على الأرض: هناك لن يعيشوا تحت رحمة صخور رمادية تبعث على الرعب، بل في وديان نضرة وجنائن مياهها وافرة. هناك لن تكون لديهم زوجات جافات متجهمات، بل حور عين بيض رائعات كالياقوت والمرجان. هل كانت الدببة وبنات آوى فوق حرمون المثلج تشاركهم انتظارهم ذاك.. كيف لنا أن ندري؟ لكن في منتصف الليل، في لحظة جنوبية احتفالية، عندما كان صوت المؤذن يصدح داعياً إلى الصلاة من فوق المئذنة البيضاء المستديرة، كانت بنات آوى ترتقي الصخور رافعة أذيالها كعصيّ، وتتضرع أرواحها بعواء كالعويل.

في شبعا، المسيحيون كانوا أقلية. انتقلوا إليها منذ زمن غير بعيد، قبل نحو أربعين سنة. في ستينات القرن الماضي، انتفض الدروز في لبنان، وانتشرت انتفاضتهم بسرعة في الجنوب السوري حتى وصلت إلى حوران. ذبح الدروز المسيحيين، ولم يرحموا المسلمين كذلك. أفرغوا الكثير من القرى والبلدات، ومن لم ينل منه نصل السكين لاذ بالفرار. في ذلك الوقت التجأ بضع عشرات من المسيحيين إلى شبعا. في الحقيقة، حجب حرمون العالم عن شبعا، إلا أنه حجبها كذلك عن العالم. فعندما كان مشايخ الدروز العتاة يجوبون وادي الشام في حاصبيا وراشيا، سافكين الدماء البشرية لتروي الجبال، كان ساكنو شبعا يأوون إلى أعشاشهم بهدوء، وأياديهم على الزناد على أهبة الاستعداد. لكن من كان ليتسلق إلى ما فوق غيوم حرمون باحثاً عن أعدائه!

المسلمون استقبلوا المسيحيين بكثير من الاحتقار والتضييق. وكي لا يثيروا حنق أتباع النبي الغيارى، كان على المسيحيين تأدية فروض الاحترام الجم أمامهم. وهكذا لم يحيوا أعيادهم فقط، بل أعياد المسلمين أيضاً. ومع أنهم بنوا بيتاً صغيراً لتكريسه كنيسة، إلا أنه لم يسمح لهم برفع جرس عليه، لعل قرع الجرس يُحدث صداعاً لدى النبي محمد في السماء! لم يكن مسموحاً للمسيحيين أن يركبوا الجياد المسرجة، بل لهم أن يركبوا الحمير والبغال. تعرض المسيحيون للضرب وكانوا يتحملون شتى أنواع الإهانات كل يوم. فعل بهم المسلمون ما يشاؤون. كانوا يعترضون طريق النساء المسيحيات محاولين إذلالهن أو اغتصابهن، فكن يخشين الخروج من المنزل.

صعب على المسيحيين إيجاد حيز من العدالة، حيث لم يوجد من يبحث عنها، فإن شكا مسيحي أحد المسلمين إلى الحكومة قام مئة من أقاربه بالاقتصاص عشرات أضعاف، آخذين بالثأر له.. وقد يقومون بقتل المسيحي. وهكذا عاش المسيحيون في مذلة تامة أمام المسلمين، لكنهم لم يغادروا شبعا. أيتركون بيوتهم المتواضعة إلى حيث البرد والجوع؟ وأين سيجدون بيتاً أو كسرة خبز؟

لكن الظروف الأكثر صعوبة عاشها المسيحيون سنة ١٨٧٧، سنة الحرب الروسية التركية، عندما وصلت شائعات مختلفة من أرض المعركة إلى ثلوج حرمون عن الانتصارات والهزائم. قيل إن القوات التركية قتلت جميع الروس، وقيل إن القيصر الروسي وقع في الأسر وقطعوا رأسه. آنذاك ابتهج مسلمو شبعا، وأخذوا يطلقوا النار ويهتفون: الموت للكفار! وإذا ما التقوا بمسيحي في الطريق كان يقولون له: طأطئ رأسك أيها الكافر! وكان المسيحي يطأطئ رأسه صاغراً، فيصفعه المسلم على رقبته ويرمي طربوشه على الأرض، ويسير في طريقه. وإذا ما لاحظ المسيحي أن مسلماً يسير خلفه، كان عليه أن يتوقف ويفسح له الطريق كي يسير أمامه، ويُبقي على مسافة معتبرة بينهما. ولحظة لقائهما، كان على المسيحي أن ينحني بتواضع علامة توقير وأن ينتظر مرور تابع النبي أمامه.

في الحقيقة، عندما علم المسلمون أنهم لم يربحوا الحرب في النهاية، وأن القيصر الروسي حيّ ولم يقع في الأسر أصلاً، خففوا من اعتداءاتهم على المسيحيين، لكن الغضب من الكفار كان يعتمل في صدورهم.

وهكذا كان العداء مستفحلاً بين مسلمي ومسيحيي شبعا، أما الصخور الرمادية المعلقة فوق القرية فكانت على عهدها، ترخي بثقلها ولونها المقيت في كل ما يحيط بها من حياة. جرداء عقيمة عارية، سحقت الخضار والأشجار، وتعدّتهما إلى تسميم أفكار الإنسان الحي، فسحقت مشاعر المودة والرحمة من قلوب قاطني البلدة المنسية.

(٢)

ربما كانت شبعا لتبقى على حالها إلى أيامنا هذه، لو لم يصل شاهين هدلا إليها، منذ بضع سنوات ليستقر فيها. وصل شاهين إلى شبعا بصدفة هيأتها الظروف، كان يعيش في وادي بحيرة الحولة، يسرح بقطعانه في حوض الأردن، وكانت علاقته غير مستقرة ببعض مشايخ العشائر العربية. في ذلك الوقت مات أحد مسيحيي شبعا، عمّ شاهين، الذي لم يترك خلفه أولاداً يرثونه. وقد ترك لشاهين قطعة أرض صغيرة وكرم عنب وبيتا. كان شاهين شخصاً حازماً، ولم يكن يحب تقليب الأمور لفترة طويلة. حسم أمره، فباع قطعانه وخيوله في شهر واحد، وأبقى على عدد من الأفراس والبغال. جمع أغراضه وزوجته وأولاده وانطلق من وادي الحولة الحار إلى ثلوج حرمون الباردة.

مجرد ظهور شاهين هدلا في شبعا كان ليثير حنق المسلمين، فقد كان شخصاً صلباً ضخم البنية، ذا وجه برونزي ممتلئ مدهن لامع.. عيناه الرماديتان الغامقتان كانتا تتنفسان الحزم والتصميم. كان يمشي بثقة نافخاً صدره أمامه، ينظر إلى من يلتقيه بتعجرف، كما لو أنه يقول له: كائناً من كنت فأنا لا أهابك، بل عليك أن تهابني. تحت عباءته، خلف الحزام يتدلى خنجر ومسدس، وفي يده سوط يجيد استخدامه.

خبر وصول شاهين إلى القرية سبقه. مسيحيو شبعا عرفوا طباعه، بعضهم أبدى سروره بوصول شاهين، معتقداً أنه سيكون خير مدافع عن المسيحيين. أما الآخرون فعلى العكس، خافوا، معتقدين أن شاهين سيثير غيظ المسلمين.

كانت بداية فصل الشتاء، أهالي البلدة كانوا قد تركوا حقولهم وبساتينهم وباتوا يقضون معظم أوقاتهم في البيوت. في المساءات، وفي انتظار الصلاة، كان المسلمون يحبون قضاء الوقت فوق شلال النبع، المتدفق تحتهم بصخب. وقرب ذلك النبع بين الصخور تلوّت درب جبلية صعوداً نحو القرية، كانت الدرب الوحيدة الموصلة إليها. على تلك الدرب كان شاهين يتجه نحو شبعا فوق فرس عربية أصيلة، وخلفه على فرسين زوجته وابنته الكبرى وطفلاه الصغيران، وخلفهم خيول وبغال تحمل الأمتعة والأواني. صدى الحوافر كان يتردد بين الصخور مترافقاً مع صهيل الخيول، على خلفية الوادي الذي ارتسم فيه المغيب أرجوانياً. وفي أسفله تراقصت المياه المتدفقة راسمة المجرى مبعدة الأحجار عنه حيناً، محتجبة عن الأنظار خلف زبدها الأبيض أحياناً. ومن جميع الجهات ارتفعت الصخور الرمادية الصماء، مكتسية بضباب كُحلِ الليل. في الجبال كان الصمت مطبقاً، كصمت معبد ينتظر الصلاة، يعبق فيه دخان مبخرة. وفي الأعالي فوق القمم، تلاعبت أشعة شمس مختبئة في ذرات الجليد، فبدت كأبر ذهبية.. وغدت قمة حرمون قرمزية وهي تستقبل الغروب.

اقترب شاهين من شبعا، وعلى الدرب التقى أحد مسيحيي البلدة، ويدعى زِكي:

- مساء الخير يا سيد شاهين - صرخ زكي بسرور.
- مساء الخير - قال شاهين - كيف أحوالك؟
- الحمد لله! كيف صحتك!
- الله يحفظك، ماشي الحال. كيف حالهم مسيحيو شبعا؟
- الحمد لله، ينتظرونك. يشتاقون إليك كثيراً...

ولفترة طويلة سألا بعضهما البعض عن أحوال الأسرة والأصدقاء، والخيول والماعز، والإبل، وحتى الحمير والدجاج، كما تقضي المجاملات العربية المعتادة. ثم ركض زكي أمام شاهين باتجاه القرية لإرشاده في الطريق، وفق أصول اللياقة. التف شاهين حول الجرف الصخري، وبات في شبعا حيث التقى ببعض مسلميها، جالسين على الدرب ذاتها ينظرون نحو الشلال مدلين سيقانهم فوق الجرف. حدق الجالسون بالوافد الجديد وهو فوق حصانه وأسلحته ظاهرة للعيان.

ـ أفسحوا الطريق، رجاءً! ـ قال شاهين ـ ألا ترون أن الأحصنة لا تتمكن من المرور؟

ببطء وتثاقل تحرك الرجال على طريق شاهين، متجهين إلى ساحة القرية.

ـ من أنت؟ – سأله أحد المسلمين.

ـ أنا شاهين هدلا. ألا تعرفني؟ من اليوم ورايح سيعرف أحدنا الآخر!

ـ شاهين هدلا الكافر! ـ صاح المسلم ـ ومن سمح لك بركوب فرس مسرجة؟ أنت كلب مسيحي، غير مؤهل لذلك! انزل عن الفرس!

اسودّ شاهين من الغضب، وسحب لجام فرسه بقوة، فرفعت قائمتيها الأماميتين صاهلة.

ـ أنا أركب فرسي! ـ زعق بشدة ـ وأنا متجه نحو بيتي. من هو الكلب بيننا، سأريك الآن!



شد شاهين سيري ركابيه، وضرب بهما جنبي الفرس، التي طارت في الهواء، وبقفزة واحدة حطت قرب المسلمين. سحب شاهين سوطه، ولسع به رأس وكتف المؤمن، الذي صرخ من الألم ووقع فوق صخرة. كانت المفاجأة قد ربطت ألسن الجميع وجمدتهم في أماكنهم.. فدخل شاهين القرية بهدوء وخلفه الأسرة والمتاع.

هكذا كان دخول شاهين إلى شبعا. أخبار الجرأة غير المألوفة انتشرت بسرعة في القرية.. فاهتاج المسلمون. كيف يجرؤ الكلب المسيحي على ضرب مسلم! يا الله! أنت لا تسمح بإذلال عيالك المخلصين. أنت دائماً كنت في عون المؤمنين تنصرهم على أعدائهم الأشداء. أحقاً على عبادك المخلصين تحمل إذلال الكلب المسيحي؟! انشغلت القرية بحركة غير عادية. خرج المسلمون إلى الأزقة منتقلين من بيت إلى آخر، يلوحون بأيديهم بغضب. حتى أن كلاب القرية أصابها الاضطراب فغدت تتهاوش، وكأن لديها معتقدات دينية متنافرة. وهكذا، غربت الشمس وصدح صوت المؤذن: الله أكبر، الله أكبر الله أكبر! لا إله إلا الله! هدأ الجميع، وبصمت تقاطر المؤمنون نحو المسجد للصلاة متمتمين فاتحة القرآن. بعد الوضوء، اصطف أتباع النبي للصلاة. وقرأ الإمام صلوات المساء. لكن بعد الصلاة، لم يخرجوا من المسجد، بل كان لديهم الكثير ليتداولوه في ما بينهم.

أما شاهين هدلا، فقد كان قد وصل إلى منزله، وزرب الخيول، فيما انشغلت زوجته وابنته بتحضير طعام العشاء. وكما هي العادة، بدأ الضيوف يتوافدون إلى منزل شاهين لتهنئته بالسلامة، أتى الكاهن جريس في ردائه الخشن، مظهراً من تحته جسمه البني القذر. لحيته الكثيفة احتوت على الكثير من القش، الذي لم يتمكن من نفضه عنه على عتبة الباب، لذا نزع قبعته عن رأسه، وضعها بين يديه، وبدأ يجمع أقذار لحيته فيها. كان جريس قد غدا كاهناً بالصدفة، حيث لا أحد يرغب بهذا العمل بين مسيحيي القرية، وهو كعطّال بطّال، أجبر على لبس رداء الكهنوت. قبل بالأمر. بالكاد تمكن من قراءة أول قداس له في بيته

الذي اجتمع فيه المسيحيون، وأراد أن يتلو موعظة، لكنه أجهش بالبكاء وقال: «أيها المسيحيون الأرثوذكس! تعرفون أنني ولدت من براز ثور، ولم أتدرب على الخطابة. فليبارككم الله!». وهكذا صار جريس كاهن شبعا.

وجاء الراعي كميل، مربي كل الماعز في القرية، كان يستطيع أن يميّز كل معزاة عن اختها ويمنحها اسماً خاصاً بها. وبعد عشرته الطويلة مع القطعان في الجبال، غدا رمادياً مثل الماعز والصخور: رمادي الشاربين والوجه والعينين يرتدي أسمالاً رمادية. وأتى الدهان غنطوس بلحية زرقاء ويدين تماثلهما لوناً. وتلاه المكاري سعيد، واللحام فرح، والبقال شاكر. أتى كل الرجال المسيحيين في القرية، ولدى ولوجهم إلى الغرفة نزعوا عند العتبة أحذيتهم، مسّوا بالخير رب البيت، وتموضعوا على الفرش والوسائد المصفوفة بمحاذاة جدران الغرفة. كانت زوجة شاهين قد تمكنت من إلقائها كيفما اتفق فور وصول العائلة إلى البيت.

– أترغب بالمشاكل يا شاهين! – بدأ الكاهن كلامه – عبثاً ضربت المسلم!

– انشالله لا يحدث شيئاً – أجاب شاهين – ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ الله يخرب بيته ويحرق لحيته! هو من بدأ بشتمي!

– ايه شاهين! ذلك حدث لنا لكننا صبرنا وتحملنا! – قال الراعي كميل – ماذا يمكن أن تفعل معهم! تصالح مع المسلمين، وإلا لا عيشة لك أو لنا هنا!

– حسناً، أتريدني أن أذهب إلى بيته لأطلب العفو منه؟ لا، الأفضل لي أن أرحل إلى أرض أخرى على أن أكون مهزوماً.

وبدأ الضيوف يوبخون شاهين على فعلته، لكنه لم يقتنع بما قالوا.. ثم بدأوا ينقون ويؤخئخون، كما لو أن لديهم ألم في أسنانهم.

ـ عبيد أنتم! - قال شاهين بغضب - ولدتم عبيداً، وتموتون عبيداً!

خشي الضيوف من غضب شاهين، فقال له المكاري سعيد مهدئاً: لا تغضب يا شاهين، نحن لن نخرج عن طوعك. أنت الثور، ونحن الذباب تحت ذيلك. افعل ما بدا لك، لكن من الخطير التعامل مع المسلمين على هذا الشكل.

صب شاهين القهوة للضيوف، واستسمح منهم وخرج إلى السطيحة. كانت القرية توطن نفسها للنوم بعد أحداث ما قبل الغروب، وبين فينة وأخرى تسمع من البيوت كلمات غير مفهومة، يتغلب عليها ثغاء معزاة أو نهيق حمار أرق. ستر الظلام القرية، أما في الأعالي فكانت النجوم تلتمع محيطة بقمم الجبال، غاسلة بضوئها تجاعيد حرمون الثلجية. تمشى شاهين على السطيحة متنفساً الهواء الجبلي البارد، وفجأة امتدت من الظلام يد إلى عباءة شاهين وهزتها. انتبه شاهين، نظر أمامه، حيث كان شخص يقف في العتمة، عرف فيه شاهين عبدالله المسيحي. كان عبدالله ذا بنية شديدة المرونة، ذا وجه طويل إن أراد ملأه بالتجاعيد، وإن أراد أخفاها. يتسلل بخفة وسهولة، ويختفي كأخطبوط، يمكنه أن يطال الأشياء على بعد ثلاثة أذرع من أمامه ولا يشعر أحد بحركته. كان عبدالله يسير ولا يحدث صوتاً، يتلوى من جانب إلى آخر، يخطو بحذر، كما لو أنه يمشي فوق مسامير. كان يخشى الأماكن التي يمكن أن يلحظه أحد فيها، يتجنب الطرق والازقة، وإن مشى فيها تراه يكاد يلتصق بالجدران، ويخطو بخفر إلى الأمام بشكل جانبي، كما لو أنه على شفير هاوية. كان فضولياً كألف امرأة اجتمعن في جسم واحد، لو عمل مخبراً لبرع في ذلك، لعرف كل شيء، لتسلل متخفياً بلا صوت إلى الأمكنة كلها. لقد كان تحرياً بارعاً بالفطرة، لكن العالم لم يكن ليعلم به كونه ولد وسيموت في شبعا.

ـ ماذا لديك يا عبدالله؟ – سأل شاهين.

وجه عبدالله تحول فجأة من تفاحة مجعدة إلى صفحة ملساء، وعيناه قفزتا من مكانيهما كإجاصتين دمشقيتين. نظر حوله في كل الاتجاهات، انحنى وقال بصوت خفيض: شاهين... المسلمون يريدون قتلك الليلة. خمسة أنفار... أنا سمعتهم.

ـ أوه... ـ تنهد شاهين بصوت مرتفع – إما أنك سكران أو أنك تكذب عليّ.

ما أن تكلم شاهين حتى اختفى عبدالله. نظر شاهين حوله مندهشاً، فلم يعثر على عبدالله. نزل عن السطح ومشى حول البيت، نظر في الأنحاء، وفي إحدى الزوايا تحت حافة السطح الضيقة، تحت أضواء النجوم الخافتة، ميّز بصعوبة شخصاً كما لو أنه مصنوع من ورقة مقصوصة ملصقة على الجدار. فجأة تحركت الورقة نحو شاهين، وبصوت خافت حذر قال عبدالله: صدقني شاهين، أقسم بالله، هذه هي الحقيقة. احترس يا شاهين، احترس، لكن لا تقتل أي مسلم. لا تفعلها، إن قتلت أحدهم فلن تكون لنا عيشة هنا.

ـ حسنا، إن كان هذا صحيحاً سوف.. ـ انتفض شاهين – قل لي، أخبرني ما الذي يجري هناك؟

لكن عبدالله اختفى مرة أخرى، بحث عنه شاهين حول البيت، لكنه اختفى، وكأنه شبح. تمشى شاهين طويلاً على السطح، سيطر عليه الغضب والتوجس. مع كل حفيف كان يصل إلى أذنيه جعل ينظر حوله بقلق ويتلمس أسلحته. فليجربوا أن يهجموا عليه وجهاً لوجه في الساحة.. أما هنا ففي الواقع يمكنهم أن يقتلوه ككلب محصور في زاوية. تأهب شاهين، نزل عن السطح إلى الغرفة العلوية، وقف، استند بظهره إلى الجدار، أنصت منتظراً أي صوت قد يصدر.

أعدت زوجته طعام العشاء، أكل، أرسل زوجته وابنته وطفليه ليناموا في الغرفة السفلية المظلمة، وبقي مكانه. أطفأ القنديل، كوّر بعض الملابس ومساند القش على تخته، وغطاها ببطانية، وفوق المخدة وضع لبّادته.. ابتسم بخبث، وهو يخرج من الغرفة حاملاً بندقيته المحشوة، واختبأ خلف جدار البيت في مكان قريب. وقف طويلاً هناك يحدق في الظلام، أتعبه الانتظار والغضب.. غضب لا تستطيع السخرية أن تمحوه، ولا الحسرة أن تزيله. يريدون قتل شاهين في الزاوية، أن يذبحوه كخروف.. جبناء سفلة! أتراه عبدالله كان يكذب؟

لكن حفيفاً صدر في العتمة غير بعيد عن شاهين المترقب، سمع وقع خطوات حذرة على الأحجار. جمد شاهين في مكانه. امتدت يده إلى البندقية، وتسلل اصبعه إلى حلقة زنادها. ميّزهم واحداً تلو الآخر، كالظلال، اثنان فوقه، ثم انضم إليهما ثلاثة، جلسوا القرفصاء، وباتوا يسترقون السمع. سمع شاهين صوت تنفسهم الثقيل. بعد دقيقة، تسللوا بهدوء إلى باب الغرفة العلوية، حيث سرير شاهين، وقرب الباب توقفوا من جديد يسترقون السمع.

شخر شاهين بهدوء من خلف الجدار، ما شجع المسلمين، فتحوا الباب، دخل أربعة منهم إلى الغرفة أما خامسهم فبقي قرب الباب خارجه. في تلك اللحظة أخذت شاهين الرغبة بالقفز لكسر رقبة ذلك الحارس، وإغلاق الباب على الآخرين، ثم ذبحهم واحداً تلو الآخر على عتبة الغرفة.. أو على الأقل أن يسخر منهم، فيحتجزهم إلى الصباح، وأن يدعو القرية كلها للاستهزاء من اللصوص.. لكن رأسه ضج بالأصوات، وبات قلبه يضرب بقوة قافزا من بين أضلاعه، كحصان يضرب الصخر بحوافره. تذكر قول عبدالله. وهو يعرف بنفسه أن إهراق الدم سيجر عواقب وخيمة.. هدأ. كل ذلك حدث في دقيقة واحدة، سُمعت من الغرفة أصوات ضربات مكبوتة، ثم بدأوا يتقافزون من الباب واحدهم تلو الآخر.

ـ الآن لن يستيقظ أبداً – همس أحدهم.

ـ لا.. لقد استيقظت! – هدر صوت شاهين من خلف الجدار – سألقنكم درساً يا اولاد الكلب!

رفع بندقيته ذات الضربين، ووجهها في أثر الفارين الخمسة وأطلق العيارين معاً.

ـ شيطان، شيطان! – صرخوا معاً.

ذهب شاهين إلى غرفته، أشعل القنديل، ابتسم ابتسامة عريضة شريرة ثم نظر إلى ما فعله المهاجمون بسريره. كانوا قد ثقبوا البطانية ومزقوها بخناجرهم، أما الوسائد فكانت مبقورة البطون وقد خرج القش منها. بحركة لا إرادية تلمس شاهين جنبيه، فقد كان من الممكن أن يبقروا بطنه وأن يخرجوا منها عشاءه الأخير.. أخذه الغضب وغدا يلوح بقبضته وينظر إلى الظلام في الخارج.

إثر سماعها الطلقتين نهضت زوجة شاهين وابنته من نومهما مذعورتين. ثم هرعتا إليه وغدتا تبكيان وهما تنظران إلى سريره. صرخ شاهين عليهما وردهما إلى الغرفة السفلية لتناما، واستلقى فوق تخته المثخن بالطعنات.

(٣)

كان شاهين قد دعاني من فترة طويلة لزيارته. كان قد أشاد بماء قرية شبعا وهوائها، وعرض علي تمضية فصل الصيف في ضيافته: انظر ستغدو قوياً ذا صحة جيدة، صدقني! - كان شاهين يحثني على الموافقة - في الصيف، كل شيء لدينا على ما يرام، طقسنا بارد! تعال إلينا!

وهكذا، في أحد أيام بداية تموز، حين كنت في طريقي من طبريا إلى دمشق، عرجت على شاهين. كان يوماً حاراً للغاية، سرت فيه على سفوح المرتفعات الجنوبية المحاذية لحرمون. هناك، كل شيء بدا جامداً بين الأرض والسماء، الصخور العملاقة وقفت هادئة، خاشعة تتلو صلواتها الأبدية، لافة رؤوسها العالية بمنديل ضبابي أزرق. كانت الحرارة تنبض في الصخور الساخنة، أركب الحصان، وأخاف أن ألمس شيئاً منها فتلسعني بنارها. المجري المائي الجبلي يتكاسل فوق الصخور، ويتمايل من جهة إلى أخرى، وكأنه يبحث عن ظل ليختبئ فيه. أما الذباب فكان يطنّ بلا انقطاع مردداً أغنية رتيبة تتماهى مع الظهر القائظ. وفي السماء، لا يُلمح أي طائر، اختفت جميعها في فيء الصخور، وفي الكهوف. واحتلت المشهد سحال وعقارب وبعض الثعابين، تمتص أشعة الشمس لتدفئ دمها البارد السام.

أما الشمس فتقف تماماً في السمت، وترسل لهبها المتدفق بمودة عظيمة إلى الأرض. كان عليها أن تزيح نحو الغرب منذ فترة، إلا أنها لا تزال مكانها، تنظر وتنظر إليّ من عليائها، فيهرب كل ما هو حي من طريق نظراتها الحارقة، ليختفي في الظلال الباردة. حتى تلك الظلال المختبئة باتت تنتظر حلول المساء على أحر من الجمر كي تهرب من تحت الصخور وتنطلق إلى أعالي الجبال.

لكن، ما أن بدأت بارتقاء الجبل نحو شبعا حتى تنفست بحرية. وصلت في المساء. لفترة طويلة قادني مرافقي عبر الأزقة الضيقة للقرية، مجمهراً خلفنا

بعبوره ذاك مجموعة كبيرة من الأطفال، وأخيراً، توقف أمام منزل شاهين. كان شاهين واقفاً على سطح بيته، وأصابع يده تتلاعب بحبات سبحة، وما أن لحظ مسافراً مجهولاً يقترب ناحيته حتى اصطنع وجهاً مقطب الحاجبين.

- سيد شاهين، جاءك ضيف! - صرخ المرافق من تحت.

انحدر شاهين مهرولاً، وسأل المرافق هامساً: من هو؟

- ألم تعرفني يا شاهين؟ - قلت وأنا أفك المنديل الأبيض عن رأسي كاشفاً وجهي.

كان سرور شاهين كبيراً وصادقاً، بدا وكأنه يتأرجح ككلب، صرخ في وجه ابنه الصغير، فقفز الصغير من الخوف جانباً. ركض شاهين ناحيتي وهرس يدي بكفيه السميكتين: أهلاً وسهلاً بك يا سيدي! يا ألف أهلاً وسهلا.

أشرق وجهه إشراقة ودّ لطيفة. ترجلت عن صهوة حصاني، وصعدت مع شاهين إلى السطح.

تحلقت الجبال فوق رأسينا، وبدت خطوط ثلج حرمون من بعيد وهي تستقبل أشعة الغروب، أما نبع المياه فكان في صخبه الدائم تحتنا، بدا خريره المتدفق شبيهاً بحفيف غابة صنوبر ضخمة. كانت تلك الأصوات تتطاير عبر الوادي وترتطم بثنايا المنحدر، وترتد لتعاود الارتطام ببعضها البعض.. الجو يوحي بالسعادة والسلام، ويزيد شعوري بالفرح وجودي فوق سطح صلب، لا فوق صهوة جوادي المتعب. وكان من الجميل ملء رئتي بهواء الجبل المنعش. وبعد ضوء النهار القاسي، كان من اللطيف تجوال البصر في الظلال الأرجوانية للغروب الجبلي. قربنا على طول الدرب كان ناس القرية يسيرون وينظرون

بفضول ناحيتنا، متهامسين بشأن الضيف الغريب. أما شاهين فكان يركض هنا وهناك، يعد القهوة، يهمس في أذن ابنته الجميلة، يطرد بين الحين والآخر الأطفال المتطفلين عن سطحه، ويقترب مني: أستبقى لفترة طويلة في شبعا؟

ـ لليلة واحدة.. سأسافر غداً.

ارتسم الخوف على وجه شاهين: لليلة واحدة! - هتف مستغرباً - نريدك أن تبقى لدينا شهراً!

ـ الضيف الجيد لا يبقى فترة طويلة يا شاهين.

ـ صحيح! أحب التحدث إلى الأوروبيين - ضحك شاهين بصوته الأجش وتابع - يمكنهم قول الحقيقة، أنا سعيد بقدومك على أي حال، حتى لو بقيت لفترة طويلة. إنه لشرف لنا أمام المسلمين أن نستقبل ضيفاً مثلك.

ـ حسناً، وكيف تعيشون هنا مع المسلمين؟

ـ باتوا هادئين، لكنهم يستمرون بالتصرف بقذارة حيالنا، لا يمكنهم أن ينسوا كيف تغلبت عليهم.. المسلمون يخشونني!.. ثم أتوا إلي للترحيب بي إثر وصولي. أتوا غاضبين متكبرين، ولم يبادروني بالسلام عليكم، كما يحيّون بعضهم البعض، بل بسعيدة! قالوا: ليس من الجيد يا شاهين أن تزرع الخلافات فور وصولك إلى القرية. قلت: سامحوني، لقد أخطأت. حسناً، لكن كفّوا أيدي جماعتكم عني، وسنعيش بسلام، وأنا عبدكم. ذلك أعجبهم، فانتفخوا كبرياء. لقد أرادوا أن يشعروني بالعار، عندها دخل إلى الغرفة هذا الكلب.. - ركل شاهين كلباً صغيراً كان قد يحوم حول أقدامنا. أضاف - دخل الكلب، فسألني أحد المسلمين: هل كلبك هذا مسيحي أيضاً؟، فقلت له: الله يخرب بيته، أنا أيضاً كنت أظن أنه مسيحي، لكن تبين أنه مسلم مثل باقي الكلاب!. جفلوا من جوابي، نظروا إلي بحدة وسألني أحدهم: لم تعتقد ذلك؟.. لست أنا من بدأ ذلك الحديث، فكان عليهم أن يتابعوه..

اختنق شاهين بضحكة طويلة، وتابع:

ـ كانت لدي هنا قطعة لحم. قلت للمسلم: انظروا، المسيحيون في فترة الصوم الآن، وهم لا يتناولون اللحوم. فإن أكل هذا الكلب قطعة اللحم فذلك يعني أنه مسلم. ورميت قطعة اللحم للكلب، وبطبيعة الحال، نبح وانقض عليها فابتلعها فوراً ونظر إليّ ينتظر أخرى..

شخر شاهين ضاحكاً، واستمر يهز كرشه لفترة طويلة.. عندما توقف عن الضحك، نظر إليّ وقال بجدية: ينعتوننا بالكفار، يضربوننا أحياناً، يمنعون عن حقولنا وبساتيننا مياه الري، وإن منحونا استخدامها فليس في الوقت المناسب. يلحقنا ظلم في المكوس والرسوم.. وإن تجادل مسيحي ومسلم فالمسيحي مذنب دائماً.. بكلمة واحدة: هم السادة ونحن العبيد.. فلنفرض أنهم لا يمسونني بسوء، حسناً، إلا أنهم يؤذون الآخرين.. ولا أستطيع الدفاع عن الجميع.

فكر شاهين ثم قال: نحن فقط بحاجة إلى مدرسة مسيحية، فأطفالنا يدرسون القرآن. ابني يقرأ القرآن، مثل المسلمين، ويتأرجح أثناء القراءة. ـ صرخ شاهين داعياً ابنه ـ تعال إلى هنا، اقرأ للسيد ما علموك اليوم في المكتب!

اقترب الصبي، جلس القرفصاء أمامنا على السطح، أغلق عينيه ومغّط أحرف العلة العربية الطويلة وهو يتلو فاتحة القرآن.

ـ انظر، يبدو وكأنه مسلم حقيقي! أيها الكلب اللعين! رح من هنا! ـ لبط شاهين الطفل بغضب، قفز الصبي وسارع إلى الاختباء.

حل الظلام. وكما جرت العادة، يتقاطر الناس للترحيب بالضيف. أتى مسيحيو البلدة، وأخذوا يتحدثون عن مشاق العيش وسط المسلمين. وبعد ذلك بقليل جاء عدد من المسلمين للترحيب بي، لكنهم أرسلوا قبلهم رسولاً يخبر أنهم

في طريقهم للتهنئة بوصول السيد بالسلامة. وبعده بوقت قصير توافدوا. تأهب المسيحيون وأفسحوا لهم الطريق. جلس المسلمون في الصدر، أما المسيحيون فكانوا إلى جانبي المجلس. أنا بقيت مكاني كضيف شرف في الزاوية الأمامية. لقم شاهين ركوة القهوة من جديد ووضعها فوق الجمر، ودار حديث ذو طابع عام.

على الرغم مما تقتضيه أصول اللياقة بإبداء الاحترام من قبل المسلمين للمسيحيين، إلا أن الشعور العام، بدا وكأن المسلمين يحتقرون الكاهن وشاهين وسواهما من المسيحيين. فأثناء حديثهم لم ينظروا إلى محدثيهم، بل كانوا يشيحون بأبصارهم من زاوية إلى أخرى، ووجوههم مرفوعة نحو السقف أما أيديهم فعلى لحاهم. كلماتهم كانت تخرج بصعوبة من بين أسنانهم المطبقة، وبدا واضحاً أنهم يؤدون فروض المداراة الشرقية، متنبهين لمن هم بجانبهم. أما شاهين فضاعف من لياقاته، إلا أن معالم الطيبة والمزاح اختفت عن وجهه، وحلّ محلها قناع بارد دائم الابتسام. كان مشدوداً كوتر، فغدت الجلسة تتجه نحو التوتر.

إلى يساري، جلس رجل مسلم شاحب الوجه نحيله. لحيته ككيس مخملي أسود، ومكان العينين كانت لديه بقعتا حبر. بدا عنقه دقيقاً لدرجة أنه يكاد ينكسر في أي لحظة تحت ثقل رأسه وعمامته البيضاء الكبيرة. كان يحرك بأصابعه النحيلة حبات سبحته حيناً أو يلملم أطراف عباءته أحياناً. كان قليل الحديث، لم يبتسم أبداً، وكان دائم النظر إلى الأرض. إنه المعلم في شبعا. إلى يميني جلس أمير محلي ذو أسنان بيضاء كبيرة تشبه أسنان حصان، وإذا ما زمجر ظهرت لثته الزرقاء. وإلى جانبه ثلاثة آخرون من المسلمين. جلس الجميع بصمت، وكان الجميع ينتظر بدء الحديث.. كسر الأمير ذلك الصمت ثلاث مرات، موجهاً أسنانه إليّ كما لو أنه يوشك أن يعضني، وكرر السؤال نفسه: كيف صحتك يا سيدي؟ وكنت أجيب في كل مرة: حفظك الله يا سيدي، في وجودكم أنا بصحة جيدة.

إلى أن تحدث شاهين أخيراً: السيد يحدثنا عن أن لديهم الكثير من المسلمين في روسيا، وأنهم يبنون المساجد ويصلون لله، من دون أي تدخل.

رفع المعلم بقعتيٍ الحبر باتجاه شاهين، وبات الجميع محرجين، وكأن شاهين اقترف أمراً فاحشاً.

ـ الله واحد عند الجميع – تنهد الراعي كميل بحكمة – أما الناس فيختلفون من حيث الأديان..

ـ أهذا صحيح؟ – سأل الأمير.

وبدأ الجميع يتحدثون عن المسلمين، وعن الانتقال من دين إلى آخر، وعن النزاعات بين المسلمين والمسيحيين، أما شاهين فكان يتحين الفرصة للدخول في الحديث بحدة، وبعشوائية أحياناً، وكان يأخذ الحديث على محمل الجد. المسيحيون الآخرون كانوا يسعون جهدهم التخفيف من وطأة عبارات شاهين الحادة، ما أثار حفيظته.

ـ نحن لا ندين الأنجيل – قال المعلم وهو ينظر نحو الأرض – على العكس من ذلك، فالقرآن يعلمنا أن الإنجيل هو وحي من الله.

ـ لا، أنتم تدينوننا – قال شاهين – وتهاجموننا. ولديكم الكثير مما هو خاطئ في معتقداتكم كذلك، فعلى سبيل المثال، تقولون إن لكل رجل في الجنة أربع نساء وأربعون حورية. لكن في معتقدنا هذا أمر سيء.

تأهب المسلمون فجأة، فاضطرب المسيحيون.

ـ أنت، في الواقع، يا شاهين لا تعرف كيف تتحاور! – قال الكاهن جريس بصوت يائس، ثم توجه إلى المسلمين – وأنتم يا أسيادنا، لا تولوا هذه الكلمات اهتمامكم.

وبات الجميع محرجين من جديد.

ـ ولماذا لا نتحدث؟ – صدح صوت شاهين من جديد – أنا بطبيعة الحال، لا أعرف سوى القليل. وهذا صحيح! لكن حدث أمر في دمشق.. بين مطراننا والوالي.. إن أردتم أحدثكم به! – أشرق وجه شاهين وهو يرى كيف استرخى المسلمون وأبدوا اهتمامهم بما سيقول.

ـ ما القضية؟ – سأل الأمير بفضول.

حرك شاهين الجمر في المنقل، وأعاد وضع ركوة القهوة فوقه، ثم توجه نحوي:

ـ الأمر كالتالي، رهان جرى بين مطراننا ووالي الشام. سمع الوالي أن المطران يقول للمسلمين: في دينكم الكثير من الأمور السيئة. فغضب الوالي، وهدد المطران بقوله: إن لم تستطع إثبات ذلك يوم الجمعة أمام الناس في المسجد فعليك أن تحترس مني.. أتى يوم الجمعة، فتوجه الوالي إلى المسجد، وتجمهر الناس تجمهر البذور في الخيارة. وباتوا ينتظرون كيف سيثبت المطران صحة ادعائه. ولما كان من غير المسموح للمطران أن يدخل المسجد قام بإرسال أحد المسيحيين نيابة عنه..

تمهل شاهين، أشعل سيجارة، فيما الجميع ينتظر كلماته بفضول:

ـ حسناً، انتهى وقت الصلاة، فقال الوالي لرسول المطران: دعنا نذهب إلى الفناء نتحدث هناك، فتخبرني بما قاله لك مطرانك. قال الرسول: لماذا نذهب إلى الفناء، فلنتحدث هنا في المسجد. فكر الوالي، ثم وافق. قال له: تحدث إن

أردت في المسجد، فنحن نسمعك. قال المسيحي: تعالوا نجلس حول البركة، إنه لأمر جيد الجلوس حولها. وافق الوالي كذلك، جلس الوالي والشيوخ حول البركة، أما الناس فتدافعوا كالنحل يحيطون بهم.. يقولون: حسنا، ماذا لديك يا ابن الكلب.. – نقل شاهين القصة كلها بصوت مشوب بالغضب وكان يتفاعل مع تفاصيلها – الرسول كان يتحدث بهدوء وبطء، بعينين نصف مغمضتين، أما الوالي فكان يشتاط غضباً ويتطاير الشرر من عينيه: تحدث يا ابن الكلب. أما الرسول فقال: الجلسة جيدة هنا، حبذا لو تناولنا شيئاً من الطعام. ازداد غضب الوالي، وبدأ يصرخ في وجهه: أنت، أيها الكلب، تسخر منا!. أما الرسول فكرر طلبه. تشاور الوالي مع الشيوخ، وقرروا أن يعطوه ما يأكله. وتساروا في ما بينهم: فليأكل الكلب. لسنا نحن من يأكل، ولا تقع الخطيئة علينا. أحضروا له بعض الخبز والجبن والعنب. بدأ يأكل ويدعو الآخرين ليشاركوه الطعام احتراماً..

ضحك شاهين ضحكة شماتة طويلة، أما المعلم فثبت عليه بقعتي الحبر دليل إصغائه. تابع شاهين موجهاً حديثه إليّ:

ـ وهكذا يا سيدي، كان يدعوهم لمشاركته فيرفضون. فأكل كل ما أحضروه له، ثم قال: أوه، كم كان الطعام جيداً، حبذا لو تأتوني ببعض العرق لأشربه! – ضحك شاهين مرة أخرى ثم سعل، وتابع – صرخ عليه الوالي والشيوخ جميعاً وأرادوا أن يضربوه. وتحلق الناس الذين كانوا قد تفرقوا. قال الوالي: اجلبوا العرق للكلب، فليلعق بسرعة! عجلوا هذا المكان مقدس. أحضروا له العرق فشرب. ثم قال من جديد: كل شيء جيد، لكن هناك أمر ناقص. قالوا له: ما الذي ينقصك أيها الكافر؟ أكلت وشربت، تحدث الآن! لكن المسيحي أصر على أن أمراً ما ينقصه، أكل وشرب، لكن من الجيد أن يداعب امرأة، أن يقبلها.. يا إلهي، بات الجميع في هرج ومرج، لوحوا بقبضاتهم وهجموا عليه، وارتفع الضجيج: اقتلوه، لقد دنس مكاناً مقدساً، اقتلوه!.. غضب الرسول وصرخ: انتظروا لحظة! هل حرامٌ عندكم تقبيل المرأة في المسجد؟ – مفهوم – صرخوا:

حرام، أيها الكلب الكافر! أما هو فسأل: كيف حرام؟ أنا اعتقد أن كل شيء مسموح! في المسجد حرام أما في جنات السماوات فحلال؟ أنتم تقولون إن لكل رجل هناك أربع نساء وأربعين حورية.. في المسجد حرام وفي الجنة حلال؟!

فتح شاهين عينيه، ضم قبضته واقترب بها من وجه المعلم، وردد: وفي الجنة حلال؟ حلال؟! – وضحك من كل قلبه.

بات الجو أكثر توتراً، ولم يعد بإمكان أحد متابعة الحديث. كان المسلمون غاضبين لكنهم كبتوا غضبهم، شربوا القهوة بصمت، ودّعوا الحاضرين وغادروا. رافقهم شاهين بلياقة حتى الطريق، انحنى أمامهم بأدب لامساً الأرض بيده، ثم رفع أصابعه إلى شفتيه وقبّل أطرافها، بما معناه أنه يقبّل التراب الذي يسيرون عليه.

طلبتُ من شاهين أن يهيء لي سريراً للنوم، لأني شعرت بتعب شديد. وكان شاهين سعيداً بالتخلص من المسيحيين الباقين ولومهم إياه. لم يقل لي شيئاً، لكن غمزني غمزة ماكرة. جلس في الزاوية، وجعل يتثاءب بصوت عال ملء فمه، ثم أحنى رأسه على صدره، وصار يشخر. جلس الضيوف، نظروا إلى بعضهم البعض، ودعوني ثم انسحبوا واحد تلو الآخر. وعندما اختفى كعب حذاء الراعي كميل، آخر الضيوف، وراء الباب ضحك شاهين وقال بمرح: ذهب الجميع، يمكن للسيد أن يذهب إلى السرير.

استلقينا في الغرفة نفسها، أنا في الزاوية الأمامية، أما هو فقرب الباب. وضع تحت رأسه خنجراً تركياً مقوساً وأبقى المسدس في حزامه. استلقى واضعا رأسه إلى داخل الغرفة أما قدماه فعلى الباب الخشبي، وقال وهو يمسح رقبته: الآن لن يتمكن الشيطان من الدخول.

(٤)

في اليوم التالي أقنعني شاهين بالبقاء حتى المساء.

ـ سأرافقك عبر حرمون ـ قال ـ فأنت لم تكن أبداً في حرمون؟

ـ لا.

ـ يعني، أن عليك التوجه إلى الجبل ليلاً، الطريق سيئة بالفعل، لكن عندما ستشرق علينا الشمس هناك، سنطل على منظر لا مثيل له في كل أنحاء العالم.

وافقت. وقضينا مع شاهين يوماً بلا مغامرات، تمشينا في القرية، وزرنا الكهف الذي يتدفق منه نبع الماء. هناك، جلسنا فوق تيار المياه الشفافة تحت السقف الحجري للكهف المغطى بالطحالب، وبدأ شاهين يسرد عدداً من قصصه العربية. كانت بساطتها البرية تعكس الطبيعة الجبلية المحيطة بنا، ضخب المياه، وصدى الأصوات وترددها.. تناولنا طعام الغداء، شربنا القهوة والشاي. وكالعادة، تجمع الضيوف وباتوا يراقبون كل ما أفعله، كما لو كنت فيلاً أبيض أو كائناً فضائياً.

أخيراً، أخذت شمس اليوم الجنوبي المبهر تميل إلى الصفرة، وانحدر الهواء الثلجي من فوق ليكسو الصخور. وفي الكروم القريبة عوت بنات آوى التي تمنّي أنفسها بأكل العنب.

ـ فلننطلق، استمع، لقد ألفت لنا أغنية ترافقنا في طريقنا ـ قال شاهين عن عواء بنات آوى، وتوجه إلى فرسه يجهزها للرحلة.

عند الغسق، كانت الخيول جاهزة. ركب شاهين فرساً أصيلة، وأخذ معه في مسيرته أحد العمال، شاب ذو عين واحدة، صامت اسمه إيليا. وانطلقنا في طريقنا. سار إيليا في المقدمة، وبندقيته على كتفه، ثم شاهين خلفه، ثم أنا ويتبعني خلفي مرافقي على ظهر حمار. تركنا القرية خلفنا، فانفتحت أمامنا جبال الصحراء السورية. توجهنا إلى الجرف الشاهق، ثم تلمسنا طريقنا صعوداً بشكل تدريجي على السفح. سطع القمر من فوق الجبال، وغسل بأشعته الصخور الرمادية، مخلفاً وراءها ظلالاً مخملية سوداء. وهبت الريح الجنوبية فجأة، حاملة معها برد القمم إلينا. كانت السماء في أبهى صورها، مشرقة نجومها بأناقة. وكأن النجوم كانت تتجادل مع القمر بلغة الضوء. الهواء الشفاف العليل فوق الجبل، كان يتشرب بأبخرة مائلة للزرقة تحتنا، بدا مغرياً خفيا صعب المنال، كأحلام فتاة. سرنا في خط واحد وراء بعضنا البعض، وكانت الخيول تخطو بثقة فوق الأحجار، لكنها ترفع آذانها بحذر مستمعة إلى أصوات الليل. كان شاهين ينطلق كالسهم، بين حين وآخر، مستكشفاً أشجاراً إلى جانب الدرب، شاهراً مسدسه فوق رأسه، وهو يغني: جبل الشيخ يا جبلنا العالي/ بترابك جبلنا دم العدا/ سبع ملوك بتخافك يا جبلنا/ وما نخاف نحنا سلطان ولا والي.

وأخيراً، خلف المنعطف ظهر حرمون. وأمامه تمادت مساحة منبسطة. منحنا جبل الشيخ فرصة للحصول على بعض الراحة استعداداً لتسلقه. كان يختبئ خلف ضباب أزرق، بدا أصغر حجماً مما عهدته، حتى بالمقارنة مع الجبال المجاورة. على طول الكروم المسيجة واحدها تلو الآخر على قدميه، وبين أسوارها الحجرية الحاضنة عنبا شهياً، انطلقنا في ممر ضيق ننظر نحو سنديانة هنا أو هناك. كان إيليا ذو العين الواحدة متأهباً في المقدمة، يطلق صيحة بين حين وآخر، تمزق الهواء الرطب، يتردد صداها في القمم القريبة ويرتد إلى حرمون النائم، فيعيد إلينا الصدى مكتوماً. ثم ظهر الحارس إيليا تحت ضوء القمر بقربنا حاملاً بين يديه عنقوداً كاملاً من العنب البارد، المغطى بحبات الندى الليلي.

تصاعدت الدرب من تحت قدمي حرمون بين الصخور. كانت الخيول مشدودة العضلات، حذرة في مسيرها، تختار مواطئ حوافرها. وبدت القمة قريبة، أمام أعيننا، حيث تختفي الصخور وتنكشف من خلفها السماء. لكن خلال ارتقائنا نحو تلك القمة، ظهر أمامنا جلمود حجري، أكثر علواً وضخامة منها. فقال شاهين، أخيراً ها نحن بين يدي حرمون.

بدأ التعب يدبّ في أوصال الخيول. توقف إيليا وأشعل جب نباتات شوكية جافة. تسللت النيران ملتهمة الجب بشراهة واصلة إلى قلبه الشوكي. ترجلنا. أبعد مرافقي حماره، لكن الحمار عانده، ولم يقبل بالابتعاد عن النار، اقترب منها محدقاً فيها، ملوحاً لنا بأذنيه الطويلتين. بدا حزيناً ذا أفكار عميقة، وكأنه كان يفكر في حياته المريرة، وظلم بني البشر، واستعبادهم لجنس الحمير.

بعد استراحة قصيرة، انطلقنا صعوداً مرة أخرى. كانت الصخور الضخمة المخيفة مكدسة إحداها فوق أختها، صخور صماء حادة.. ووراء ظهورنا تتاءبت الهاوية المعتمة. حل الصمت على الجميع، وجالت الأبصار في منحنيات الدرب، كان علينا أن نراقب خطوات الأحصنة، كي لا تقودنا حركة غير محتسبة إلى الهاوية. كانت الخيول تلهث تحتنا.. وإيليا أمامنا يقفز من صخرة إلى أخرى شاهراً بندقيته المزينة بشريط طويل من ضوء القمر. أما مرافقي فمشي خلف حماره، ناكزاً إياه تحت ذيله بمسمار خشبي حاد، كي لا يتوقف. وصلنا إلى كهف يبيت فيه الرعاة مع قطعانهم أحيانا، مرة أخرى ترجلنا بقصد الراحة. قال شاهين إننا نكاد نبلغ أكتاف جدنا حرمون، وبالفعل، هنا فوق الوديان السحيقة، كانت تنحدر شرائط ثلجية بيضاء من الرأس الأشيب. كان الجو بارداً.

كان ركوب الخيل في المرحلة اللاحقة صعباً للغاية، وأمراً بالغ الخطورة ليلاً، فمشينا على أقدامنا إلى جانب الأفراس، وكان من الضروري أن نحافظ على دفء أجسامنا. بالقرب منا كانت الصخور مكتسية بغطاء شوكي.. والأشواك

كانت قاسية تغرز في كعبي حذاءي، تخترقهما، فأشعر بوخذ أبرها يدمي رجليّ. سار شاهين في المقدمة، كان يمشط الدرب بجزمته الجلدية يزيل عنها ما تيسر من الأشواك. غير مرة في العتمة، كانت الدرب تقودنا إلى حواف منحدرات صخرية، وشاهين يطلق شتائمه مبتسماً، ويحيد عن المنحدرات، مبعداً إياي عنها. وبعدما أخذ منا الإنهاك مأخذاً، وصلنا إلى أرض مستوية. نزع شاهين عن رأسه الكوفية والعقال، ومسح عرق جبينه، وقال: ها نحن قد ارتقينا رأس جدنا حرمون.

كان الليل قد انتصف تقريباً، والقمر قد اختبأ في مكان ما، أما حولنا وفي كل الاتجاهات، فامتدت هاوية ضبابية غامضة بلا نهايات. كما لو أننا نقف فوق صخرة، وحولنا بحر زجاجي بلا قعر أو حدود. أما الهواء فكان عليلاً منعشاً كماء بارد نقي. لفترة طويلة لم أتمكن من التقاط أنفاسي، استغرق الأمر نحو نصف ساعة حتى انتظمت نبضات قلبي، وسال الدم بانسياب في جسمي المنهك. ربط المرافقان الأفراس والحمار إلى بعض الصخور، ومنحاها بعض الطعام. ثم بحثا عن مغارة ما، وجداها فأشعلا النار قرب مدخلها، ثم بدآ يشويان اللحم على أسياخ، كان شاهين قد أتى بها معه. جلسنا أنا وشاهين فوق صخرة نرتاح قليلاً، ثم توجهنا إلى جيث النار.

كان ضوء شرارات النار يتقاذف من حفرة الموقد، والظلمة تكاثفت فوقنا. وكأن ذلك الضوء انتهاك لنظام العتمة، فحاول خنقه من جميع النواحي بعباءته المدلهمة. انحدرنا نحو المغارة، كانت عبارة عن غرفة نصف مهدمة، تناثرت فيها القمامة والأحجار. ربما كانت خزان مياه قديم العهد، بناه عبدة بعل الفينيقيون لمعبد كان موجوداً على قمة حرمون. أو ربما بنيت الغرفة لهدف آخر.. الله أعلم. الجدران رطبة، غطاها العفن واختفت معالمها تحت طبقة من الطحالب. سمحت لنا شرارات الموقد باستراق النظر إلى الجدران المعتمة والسقف المحدودب، والأرضية المليئة بالأوساخ. بدت الظلال الليلية وكأنها صُدمت بقدومنا مع الضوء، كانت تتراقص وتهرب منا إلى الزوايا البعيدة للكهف، كعصافير

مذعورة. كانت تتصادم ببعضها البعض، وتلوح بأجنحتها الصغيرة بلا صوت، تهدأ للحظة عند السقف حيناً، أو على الجدران والأرض أحيانا. بدا وكأننا لسنا وحدنا في ذلك الكهف، وكأننا قد بثثنا الرعب في قلوب سرب كامل منسي من السكان الصغار، الذين أخافتهم أصواتنا الدخيلة الوقحة، فغدوا كظلال شموع صغيرة تتطاير من جهة إلى أخرى بقصد الاختباء.

ـ قاعة زفاف جيدة! – قال شاهين، وهو يجلس على حجر.
ـ زفاف! لماذا؟ – سألت.
ـ وكيف لا – شخر شاهين – سيأتون إلي بزوجة شابة إلى هنا، هذه الليلة.

نظرت إلى شاهين أتفقده، لعله قد جن! لكنه جلس على الحجر يضحك بصوته الأجش، كما هي حاله دائماً. أشرق وجهه بالدعابة التي ألقاها وبدا راضياً عن نفسه.

ـ من أين؟ عن أي زوجة تتحدث؟
ـ من كفّ! تعرف تلك القرية الواقعة تحت حرمون، هناك، لدى ابن الكاهن، رأيتها امرأة جميلة.. زوجها غبي.. لمَ لديه امرأة جيدة؟ لقد تركها وسافر إلى أميركا ليعمل، تركها في البيت وهاجر. اليوم سيأتون بها إلى هنا.. إليّ.
ـ ولكنك متزوج يا شاهين..
ـ وماذا في ذلك؟ تلك الزوجة كهلة، وقد اشتريت لها بيتا في الشام. هي ستذهب إلى هناك، وأنا سأتزوج بالثانية هنا.
ـ ومن سيزوجك بها؟ – ازداد استغرابي.
ـ كاهننا سيكللنا – قال شاهين غاضباً من عدم فهمي.
ـ نعم، كيف يمكن أن يعقد قرانكما، فمن الممكن أن يتم عزله جراء ذلك؟
ـ ولمصلحة من عزل أحمق مثله.. نعم، لقد حصلت على إذن من المطران – قال شاهين وهو يشيح بنظره بعيداً عني.. فعلى ما يبدو أغضبته.

بسط إيليا الخرج أمامنا، ثم نشر قطعة رقيقة من القماش فوقه، وفوقها كوّم اللحم المشوي ثم أتى بقنينتين، الأولى تحتوي نبيذ العنب وهي من نصيبي، أما الثانية فتحتوي العرق، وهي لشاهين. كما أتى بالجبن والعنب. حاول أن يرتبها فوق «المائدة» بقدر الإمكان، ووضع شمعة فوق حجر قربنا، ثم انسحب نحو الموقد. هناك، فرش «مائدة» عشاء أخرى له ولمرافقي.

أكلنا بصمت أنا وشاهين، كان يرمي في فمه قطع اللحم المشوي، ويعلكها بصوت عال، ثم يشرب فوقها العرق المكسور بالماء، ثم يتناول بعده شيئاً من الجبن أو العنب. وهكذا، أكل كل ما طالته يده، أحيانا كان يستقيم بظهره سامحا للطعام بالمرور نحو معدته.. ثم يبدأ بالعلك من جديد. أخيراً، مسح يديه بسرواله، أخرج علبة تبغ، ولفّ سيجارة ثخينة بدت كجزرة، استلقى على الأرض، دخّن ثم تحدث فجأة:

- كان يا ما كان في قديم الزمان، منذ بدء الخليقة - عيناه كانتا نصف مغمضتين بفعل العرق والطعام، لكن وجهه كان مشرقاً هادئاً.
- ما هذا؟ أتروي لي حكاية؟ - سألت.
- سترى - زفر دخان تبغه وتابع - كانت الأرض خضراء نظيفة. السماء كذلك كانت نقية، والجبال العالية كانت ترتدي قبعاتها المثلجة وتلتمع تحت الشمس. آنذاك، من علو لا نهائي، من بين النجوم، سقطت العظمة نحو الأرض. رأت العالم الجديد وفكرت أن تضمه إلى ممتلكاتها، كما هو عهد ملوك اليوم مع الأراضي.. نزلت إلى الأرض، كانت عباءة عملاقة ملقاة على كتفيها، وكأنها الغيوم تسبح في السماء. اتكأت العظمة بيدها على قمة أحد الجبال العالية، ونظرت إلى كل الأنحاء، نافخة صدرها بفخر. ثم نظرت إلى تحت ولاحظت فجأة، بالقرب من قدمها، مخلوقاً صغيراً. «من أنت؟» سألته العظمة بتكبر. «أنا الجمال» - قال ذلك المخلوق الصغير بخجل. سألته «ولم أنت هنا؟»، قال: «أتيت إلى الأرض لمواساة الناس، الخالق أرسلني إلى الأرض وفوضني أمرها». نظرت العظمة من عليائها إلى الجمال بتكبر «فوضك أنت! أتنازعني

ملكي؟ إنه أمر مثير للسخرية.. أين قوّتك؟». أجاب الجمال: «سأحكم المخلوقات الصغيرة التي تعيش في هذا العالم، بني البشر». تعجبت العظمة وقالت: «أنا أحكم السماء، وحركة واحدة مني كافية لأسيطر على جميع البشر. سأرعد في السماء، وأثير البحر، وأهز الأرض. سأمنح بعض قوتي للملوك. سيخضع لي الجميع ليعبدوني.. أما أنت فصدقني، لن يلاحظك أحد». توجهت العظمة إلى الغيوم، أما الجمال فبقي على الأرض. كان يتفحص بمودة كل زهرة، كل عشبة، كل قطرة ماء. وأخيراً، التقى بامرأة ومنحها سلطته وقواه كلها. أما العظمة فقد منحت الملوك شيئاً من قوتها، وبقيت فوق السحب ترعد بين حين وآخر. هكذا، ومنذ ذلك الحين ينحني الجميع أمام المرأة، الملوك والحكام والحكماء، الأغنياء والفقراء، وبات الجميع عبيدها. وحدهم المحرومون من نعمة البصر والمرضى يستطيعون الإعراض عن المرأة. والجمال، عبر المرأة، يستولي على الأرض، أما العظمة فبقيت وحيدة تسيطر على الرعد فقط.

نفخ شاهين دخان سيجارته، وسأل: قصة جيدة؟

من أين أتى شخص نصف متوحش بحكاية عميقة المغزى كهذه؟ أي أمواج من التاريخ قادت إليه هذه المخيلة الجميلة؟

– فهمت! يعني أن الجمال تغلب عليك، لذلك قررت أن تتزوج من امرأة أخرى؟ – سألته.

– من الواضح أني مللت من زوجتي الكهلة، أما الجديدة فستأتي.. وستراها. هي بارعة الجمال – ضحك شاهين ولوى لسانه.

– ولم ركلت ابنك برجلك عندما قرأ القرآن؟ أي مسيحي أنت؟ يبدو أنك مسلم أكثر منه بكثير!

تحجر وجه شاهين، وبات صارماً..

ـ بربك! أي مسيحي أنا؟ ألا يكفي الاسم؟ أأنت جادٌ في سؤالك؟ وهل المسلم عدوي بسبب الدين! هه هه هه! وما لي وما يؤمنون به؟ أنا أعرف دينهم، ربما، ليس سيئاً، إنه مثل ديننا، يتراحمون في ما بينهم، ويقولون الصدق، أما بالنسبة إلى النساء فدينهم أفضل من ديننا، لديهم حرية أكثر. أنا لا أعرف ما الفرق بين ديننا والإسلام، لكن المسلمين أعدائي، إذ إنهم يضطهدوننا منذ ألف سنة.

ظهر الغضب الشديد على وجه شاهين، رمى عقب سيجارته في اتجاه الجدار، فارتطم به ناثراً ألف شرارة في جميع الاتجاهات، ثم بدأ يلف سيجارة جديدة. ومن مدخل المغارة وصلنا شخير مرافقينا وهما يغطان بسلام في نوم عميق. ومما يسمح لنا به مدخل المغارة من الرؤية خارجه، كانت العتمة قد بهتت إلى حدّ كبير مؤذنة بصبح قريب.

ـ حسناً شاهين، أنت تعترف أنك مسيحي سيء، ولكن ما تفعله ليس سوى سرقة. أنت تسرق زوجة رجل آخر وذلك لا ينبغي أن يفعله أي مسيحي أو مسلم أو وثني. كما تدين تدان، اليوم تسرق وغداً يأتي من يسرق منك! لا يحق لك ذلك.. من منحك الحق؟ قوتك؟

ـ حق! – زعق شاهين – في تركيا لا توجد حقوق. ربما لديكم في روسيا توجد حقوق، أما هنا فلا. العشارون بدل أن يأخذوا عشر المحصول ضريبة، يأخذون نصفه، أهذا عدل؟ المسلمون يضربوننا، يحقرون نساءنا وبناتنا، ويعتبروننا كلاباً، أهذا عدل؟ تهوي الصخور من الجبال فتسحق البشر، أهذا عدل؟ الجنود الأتراك بدل أن يحموا المسيحيين يذبحون قرى مسيحية عن بكرة أبيها، أهذا عدل؟ القضاة يسرقون.. ولا يوجد عدل ولا حقيقة. لا يوجد عدل، لم أره ولم ألتق به في حياتي.. لا أعرف أين يعيش. أما القوة فأعرفها. حيث يمكنني أهجم، وحيث لا يمكنني أحجم.. كما يفعل الجميع هنا.

كان شاهين يتصبب عرقاً، وكأنه يحمل حملاً كبيراً متسلقاً الجبل. صمتنا لفترة طويلة. أردت أن أنام. لكن كل شيء حولي كان رطباً لا يبعث على الراحة، فلم يجد النوم طريقه إليّ. وكي أقصّر ما تبقى من الليل سألته:

ـ وكيف حصلت على إذن المطران؟

ـ ذلك بغاية البساطة ـ ضحك شاهين ـ كان المطران في بيتي، مكث لدي يومين، ثم أراد الرحيل. سألته إلى أين؟ قال إلى المجدل، فقلت له مع السلامة أما أنا فذاهب إلى حاصبيا. فقال إلى حاصبيا؟ في أمان الله. خرجنا من البيت وتفرقنا كل في طريقه. ثم رجعت وتبعته، التفت إلي وسأل: كيف تقول إنك ذاهب إلى حاصبيا؟ قلت: أردت ذلك لكن غيرت رأيي. انتظر قليلاً لدي أمر أريده منك. سألني: ما الذي تريده؟ قلت: أريد منك ورقة.. أرغب بالزواج مرة ثانية. قال: لكن لديك زوجة. قلت: أريد واحدة أخرى. قال: ما بك يا شاهين، ثب إلى رشدك. قلت: لقد ثبت إلى رشدي، أريد واحدة أخرى. قال: إليك عني، ما تريده شر، سأسجنك. شهرت مسدسي في وجهه، وسألته: أستعطيني الورقة أم لا؟ قال لي: نعم، لكن لا ورقة لدي لأكتب عليها. ناولته ورقة وقلت له: خذ هذه، إنها جاهزة، اكتب عليها. كتب على الورقة التي أعطيته إياها، وفي أسفلها سطّر حاشية للكاهن ألا يعمل بموجبها. نظرت إلى الورقة، وضعتها في جيبي، وقلت له: الآن أحتاج إلى ورقة أخرى حقيقية يعمل بموجبها الكاهن ويكللنا. قال: أعطيتك إياها. قلت: هذه لا تنفعني. فكتب ورقة أخرى فتركته لحاله. ثم قصدته، فأعطيته بضع ليرات ذهبية فهدأ. هكذا حصلت منه على الإذن.

ـ ستسجن بعد هذا الزواج يا شاهين. ذاك الذي ستسرق زوجته، ألن يشتكي عليك؟

بصق شاهين باحتقار: إيه يا سيدي! لقد تم سجني ثماني عشرة مرة. يسجنونني ثم يطلقون سراحي، وإن دفعت لهم بضع ليرات فلن يسجنوني أبداً.

لا، لا أخشاه.. لكن لماذا لم يصلوا حتى الآن؟ لقد آن أوان وصولهم!

انتصب شاهين، مط جسمه، وصرخ على المرافقين: إيه.. استيقظا!

ـ ها هو الصباح يقترب – نظر إليّ شاهين – ستشرق الشمس الآن. تعال ننظر إلى أنحاء سوريا. المنظر من حرمون رائع!

خرجنا من الكهف، كان الضوء يعمّ المكان بالفعل، والشرق يشع بروائع طبيعة عذراء لم يتم تدنيسها بعد على أيدي البشر. روائع لم أرها من قبل، هي وجه الطبيعة النقي. ما أن توجهنا لننظر ناحية الصحراء السورية، ونرتقي التل الصغير قرب الكهف، حتى مدت الشمس المشرقة أول أشعتها. نظرت حولي، وللوهلة الأولى لم أصدق ما أرى. كنت مبهوراً بعظمة المشهد الممتد أمامي. تحتنا في البعيد كانت الغيوم تتهادى كسهول ثلجية في بلادي الشاسعة الباردة. الحجاب الأبيض المرخى حرمنا من رؤية الوديان، لكنه سرعان ما انضب على نفسه كناموسية كبيرة فتفتحت انفراجات أظهرت الأعماق البنفسجية القاتمة. خلف الحجاب الأبيض إلى الغرب، كان الأزرق طاغياً إلى ما لا نهاية. إنه البحر المتوسط. بدا وكأنه يستلقي تحت أقدامنا. إلى الشمال، اصطفت جبال لبنان تكللها الغيوم بعمامات بيض. مئات القرى والبلدات تناثرت بقعاً رمادية في السهول، وخلفها في البعيد البعيد انتصبت جبال وغيوم فوق قمم. إلى الجنوب، اصطفت الهضاب قرب مرايا الحولة وطبريا والبحر الميت. نظرت إلى البعيد، كيف تتجمع الجبال وتتفرق كحبات ماسية، تفرقها الأنهر والجداول. كيف تنتشر الشمس في سماء سوريا وفلسطين، هذه الشمس الأبدية التي تغزو السماء الزرقاء فتتلاعب بحبات الندى صانعة أقواس قزح. كم هو جميل أن تتنفس وتشعر بحرية. كما لو أنك تولد من جديد أو لحياة أخرى. وكأنه لم يكن لديك أي ماض، مستقبلك ها هو واضح أمامك من هذا المكان الشاهق المشرف على كل شيء. كأنك ارتفعت عن الأرض وخلفت وراءك كل شيء، كل ما كان يرهقك ويقض مضجعك من ضغوط الحياة الإنسانية غير الآثمة.

ـ رائع! ـ قال شاهين ـ يعرف الشيطان عمله جيداً.

ـ وما شأن الشيطان في الأمر!

ـ وكيف لا؟ ألم يأت بيسوع إلى هنا ليريه ممالك الدنيا. ها هي الآن أمام أعيننا..

لكن شاهين لم يكن ينظر في تلك اللحظة إلى ممالك الدنيا الممتدة أمامنا، بل كان يراقب الدرب الجبلية تحتنا، والتي تقود إلى قرية كَفّ. فجأة، كما لو أن البلدات والقرى المتناثرة أمامنا تسترق السمع، همس بفرحة: إنهم قادمون.. قادمون. على الدرب المتعرجة في ضباب الصباح ظهرت ثلاث نقاط تزحف إلى فوق، وكانت تلك النقاط تكبر شيئاً فشيئاً. بعد حين استطعت أن أميز امرأة بينها. لوّح شاهين بكوفيته وهو يصرخ مرحباً. شاهدنا الوافدون فاتجهوا صوبنا. ذهب شاهين لاستقبال زوجته الجديدة. أما أنا فاتجهت ناحية الجنوب مبتعداً قليلاً، وجلست على حجر بين أنقاض المعبد.

أيام الفينيقيين، هنا كان بيت البعل، أما أيام الإغريق فتكرس المعبد للإله المبتهج بان، إله القطعان والغابات والربيع، إله صحوة الطبيعة. قد تجد الكثير من هذه المعابد بين الصخور الرمادية لحرمون، إذ يصعب إيجاد مكان أكثر ملاءمة لعبادة إله البهجة ـ الإله الراعي بان، إله متعة الربيع. هنا، تنظر من فوق الجلاميد الصماء المطلة على أرض الله كلها، الممتدة تحت قدميك وتصرخ بلا إرادة منك: حيّ، حي بان العظيم! لا بد أن الجبال كانت مزينة بالخضار أيام الإغريق، وكذلك الوديان. وكان حرمون أكثر جمالاً، فكل جمال صحوة الطبيعة، وكل جمال الربيع ونسيمه، وأول خضرة الغابات والعشب.. كل ذلك يمكن الشعور به هنا بشكل أقوى من أي مكان آخر في العالم.

تفرقت الغيوم الصباحية شيئاً فشيئاً، وتحت أقدامنا امتدت الوديان المذهلة، لاحظت ثلاث سنديانات متمردات تقف بين الصخور الرمادية على حافة الهاوية. بدت وكأنها كانت قد تأرجحت من الرعب فتشبثت بكل جذورها وفروعها بالصخور. تعلقت بها بألم. كانت ظهورها إلى الهاوية، قد نشفتها الرياح العاتية والأمطار وحبات البرد، وغزاها نفناف الثلج فنمت لديها قشرة رمادية ميتة.

كان شاهين قد اختفى مع خطيبته ومرافقيها في الكهف. وكان قد آن أوان انحداري عن قمة حرمون عبر الدرب الجبلية نفسها، التي تسلقها موكب الزفاف قبل قليل. أمرت مرافقي بتجهيز الفرس. خرج شاهين من المغارة كالسكران، لوح لي بيده، فاقتربت منه.

ـ تعال انظر إلى زوجتي الجديدة. لقد قلت لك إنها جميلة. تعال انظر.

في تلك اللحظة أطلت امرأة برأسها من مدخل الكهف، نظرت بوجل إلى جميع الاتجاهات، كما تنظر بطة برية خرجت من مخبئها إلى أرض مفتوحة.

ـ تعالي إلى هنا! ـ صرخ شاهين.

تقدمت المرأة بخوف وخجل، مطأطئة رأسها، زامة كتفيها كما لو أنها تريد أن تختفي في الأرض بعيداً عن عيوننا وضوء الشمس.

ـ سلمي على السيد ولا تخافي ـ شجعها شاهين ـ إنه صديقي.

مدت إلي يدها على استحياء، كانت يدها مزينة بأساور زجاجية.. أخفت فمها بمنديلها، سعلت، ونظرت بعينيها نحو الأرض. لم تكن بارعة الجمال. عيناها، ربما كانتا لتبدوَا جميلتين في لحظات فرح، أما الآن فكانتا غائمتين من القلق وشبه مغمضتين، يثقل عليهما جفناها. كانت شقراء ممتلئة الجسم والثديين، ذات خدين مستديرين، بغمازتين، وشفتين ورديتين. ربما كل ذلك أبهج قلب شاهين. كان واقفاً إلى قربها مبدياً سروره وإعجابه الكبير بها، مبتسماً منقلاً الطرف بينها وبيني. في ذلك الوقت سار مرافقي نحوي بفرسي المسرجة.. افترقنا أنا وشاهين كل إلى طريقه.

لفترة طويلة انحدرت على الدرب الجبلية المتعرجة، سارت بي الفرس حذرة كأنها تسير على ذيلها، شادة قائمتيها الخلفيتين. ومع كل خطوة إلى تحت كانت المعالم تتغير. كان انبساق الجبال يزداد، وكأنها تنبت من أعماق سحيقة نحو السماء. والسماء كانت تنضب على نفسها وتتكئ على القمم الزرقاء الباردة. وبعد ليلة طويلة لم أذق فيها طعم الراحة، سيطر عليّ النعاس، فما أن وصلت إلى مكان منبسط حتى استسلمت لنوم عميق فوق سرج فرسي.

في البيت، كانت مصيبة تنتظر شاهين. في تلك الليلة، عندما كنا على قمة حرمون، فوق الغيوم، بعيداً عن الناس وصراعاتهم الدينية، كانت الأمور تحت مختلفة. فقد كان الناس يرتكبون فعلاً شريراً. سرق بعض مسلمي شبعا نقوداً من بيت شاهين، واعتدوا على ابنته الجميلة مدنسين شرفها. ما أن رجع شاهين إلى بيته حتى التقى بابنته الغارقة في دموعها، المنزوية في سريرها. أما النقود المسروقة فكانت نحو مئة ليرة تركية ذهبية. أتاه مسيحيو البلدة، تسللوا إلى منزله خلسة مثل السارقين، أما المسلمون فحل عليهم صمت مطبق. لم يهدأ روع شاهين حتى المساء، استجوب ابنته الباكية، حاول أن يعرف منها إن كانت قد تعرفت إلى المعتدين.. ثم قرر أن يرفع شكوى على مسلمي البلدة إلى المطران والبطريرك.

في تلك الأثناء كان قد انتشر خبر سرقة شاهين زوجة رجل آخر من قرية كف. ورفعت قضية ضد شاهين، لكنه بطريقة ما حلها بسلام، فعلى كل حال أبقى المرأة معه. ولما سمعت زوجته الأولى بخبر المصيبة التي حلت به وابنتهما رجعت من الشام إلى شبعا، وهكذا باتت زوجتا شاهين في بيت واحد. أما هو فكان دائم التنقل بين شبعا والشام، يسعى إلى متابعة قضيته المرفوعة عبر البطريرك أمام القضاء. وطال انتظاره، وانعكس عليه عدم العثور على الجناة حزناً وتعاسة. كان وجه شاهين يضمر، أرخى لحية كبيرة بدت ككومة شوك، وصار لونه رمادياً كطحلب جففته الشمس. أحياناً، كان يزورني في دمشق، ولا يطيل الزيارة، كما لو أنه محرج. كان قليل الحديث، ولم يكن يستعيد حيويته إلا عندما يشرع بشتم المسلمين.

بعد مراجعة ملابسات القضية، قررت السلطات التركية عدم ثبوت الأدلة على المدعى عليهم. وبالتالي أغلقت، فأبلغ الوالي البطريرك بالأمر. شاهين كان آنذاك في دمشق، فتوجه إلى البطريرك. وكان يوم عيد عند المسيحيين، ففي قاعة الاستقبال في البطريركية اجتمع أناس كثر، معظمهم في ملابس أوروبية. وقد جلس في المقدمة مسؤولون أتراك مسلمون. أما شاهين فكان في ملابسه البدوية المعتادة جالساً على الأرضية الرخامية بتواضع قرب مدخل القاعة. سُمع صوت صولجان يطرق الأرض مؤذناً بدخول البطريرك، فظهر بحلته المذهبة فوق جلبابه القاتم وخلفه ثلاثة مطارنة. ارتقى البطريرك كرسيه، وباشر الجميع يقتربون بين مهنئ ومتبارك.. شاهين اقترب بدوره.

- حسناً شاهين، اذهب إلى شبعا وعش هناك بسلام - قال البطريرك - حينذاك لن يمسك أحد بسوء.

- وكيف سأعيش يا سيّدنا؟ - سأل شاهين بصوت مجروح - كيف سأعيش وشرفي مدنس؟ وممن سآخذ المال وقد سرق مالي؟ إن أنت تخليت عني فمن سيحميني إذاً؟ أأتوسل الحماية من المسلمين؟

- وما الذي يمكنني فعله لك؟ وكيف سأحميك في وجه المسلمين، إن كنت أنت نفسك تتبع أحكامهم، فزوجتك لا تزال على قيد الحياة وتتخذ زوجة أخرى.. تسرق زوجة غيرك!

مرارة العجز اعتصرت نفس شاهين، وبات قلبه يغلي من السخط، واسودت الدنيا في وجهه. جمد للحظة ثم زعق على مدى صوته الأجش تائها بعينيه كمجنون: نعم أنا مسلم! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله!

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله - ردد المسؤولون الأتراك الجالسون في صدر المجلس.

صرخ المسيحيون: ما بك يا شاهين! ثب إلى رشدك! .. لقد جن! خذوه إلى الفناء! أما شاهين فلم يسمع من ذلك شيئاً، بل كان يلوح بيديه يميناً وشمالاً ويردد: محمد رسول الله! محمد رسول الله! بدا المشهد غريباً ومشوشاً. أمر المسؤولون الأتراك جنودهم بسحب شاهين من بين الجمع واصطحابه إلى السراي وتسليمه إلى القاضي. وخلفه في الشارع احتشد الناس، كان عددهم يزداد مع كل خطوة، ويتناقلون في ما بينهم خبر هداية الله شاهين إلى الإسلام.

كان شاهين يسير في مقدمة الحشد متوتراً عصبياً، ينظر إلى الناس.. بدا له أن كل شيء من حوله يراقبه.. الناس والكلاب والحمير، والجدران القاتمة وأقواس مداخل الأسواق.. آلاف العيون مفتوحة عليه تحدق وتصرخ في أذنيه: خائن! لقد خان دين الآباء والأجداد، وبات حليف أولئك الذين عذبوا ويعذبون المسيحيين! رنين تلك الكلمات بات يتردد مؤذياً رأسه طاحناً دماغه.. وطأة العيون المفتوحة عليه من جميع الأماكن باتت سهامها تخترق جسمه المتأرجح بين الجنود. كان يتمايل بلا شعور منه ضارباً بكتفيه الجنديين عن يمينه ويساره، ويبصق بين حين وآخر بين قدميه. لم يدفعه أحد من الخلف، إلا أنه كان يحسّ بذلك، وكأن جسمه لا يطاوعه للسير إلى الأمام، فبات يهز رأسه كثور يُجبر على السير بعد ربط قرنيه بحبل.. إلا أن حبله كان غير مرئي. آه.. كم كانت الأمور أكثر بساطة قبل نصف ساعة، كان مسيحياً، إنساناً طاهراً.. أما الآن فهو خائن. لقد دنسوا شرف ابنته وسرقوا ماله.. حسناً، وماذا؟ كل ذلك يبدو تافهاً أمام مصيبته الحالية.. ألم يكن بإمكانه أن يثأر لشرف ابنته ولنقوده المسروقة؟

كان بإمكانه أن يقطع رأسين غبيين أو ثلاثة، ويهرب. كان ليبقى إنساناً طاهراً. أما الآن فهو خائن. كيف سينظر في عيون أبناء دينه المذعورين؟ أبناء بلدته وأولاده، زوجتيه، وابنته المدنسة الشرف؟ نعم.. سيدينونه جميعهم.. سيحتقرونه. آخ.. ولمَ تلفظ بتلك العبارة؟.. ليس له أن يعود إلى ما كان عليه. الآن هو مسلم! لقد تلفظ بالكلمات المقدسة بحضور شهود مسلمين. والمسلمون يعلمون أنه ليس غبياً، ولم يكن مخموراً.. لقد كرر تلك العبارة غير مرة، صرخ بها على مدى صوته.. وبات مسلماً، ولا عودة عن ذلك. نعم لو أنه يستطيع أن يقنع القاضي بأنه تلفظ بالشهادتين في نوبة غضب جامح، لو أن القاضي يأخذ بتراجعه عنها.. لكن لا، حينذاك سيقدم أي مسلم على قتله، وسيقول للقاضي إنه نفذ حكم الارتداد، سيقول: لقد قتلته بعدما ارتد عن الدين الحنيف. وسيكون حكمه كما لو أنه لم يقتل شاهين، بل كما لو أنه قتل أي كلب شريد؟ كل تلك الأفكار كانت تتنازع دماغ شاهين المرهق، كان يشعر بأنه يسكن كابوساً مخيفاً، وإلى جانبه يسير جنود وتنبح كلاب. لا. ظهرت أمامه الحقيقة مجردة الآن، فهو في شوارع دمشق، ولا يسير كمنتصر أو كمجرم.

باقي نهار شاهين مر أمام عينيه كأنه في حلم. مثلَ أمام القاضي. أجاب عن أسئلته، وعبر عن أنه بكامل رغبته ووعيه قال ما قال. وكرر الشهادتين اللتين أدخلتاه في الدين الجديد. أكد القاضي أنه وفق أحكام العقيدة المقدسة، نطق النصراني شاهين هدلا بالشهادتين أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، بكامل وعيه. وأنه ترك ضلاله واتبع الصراط المستقيم، وبذلك يتم قبوله في جماعة المؤمنين.

(٦)

ليلاً ترك شاهين دمشق متجها نحو شبعا. وصل إلى قريته النائمة فوق أعالي حرمون صباح اليوم التالي. حدسه أخبره أن خبر ارتداده عن دينه قد سبقه إلى القرية. أول من وقع في طريقه الكاهن جريس. كان يجلس جانبياً فوق ظهر حماره، متجهاً إلى الجبل ليجمع بعض حطب التدفئة. ما أن رأى شاهين حتى قفز من فوق حماره نحو الأرض، وسد الطريق عليه.

ـ سمعت يا شاهين أنك صرت مسلماً ـ قال الكاهن بما يشبه السؤال.
ـ حسناً، وماذا في ذلك؟ أهو أمر سيء؟ - أجاب شاهين بصلافة.
ـ وكيف سنكون الآن وحدنا من دونك؟ - رفع الكاهن حاجبيه المحمرين المنتفخين، وسأل ـ الآن أنت أيضاً ضدنا؟ - اهتزت لحية الكاهن وسالت دموع عينيه مجمعة الأوساخ من خديه لتحط على شاربيه.
ـ حدْ عن الطريق!

ضرب شاهين الفرس، وكاد يطيح الكاهن عن الطريق، وسار. ركب الكاهن الحمار ورجع باتجاه القرية خلف شاهين.

في بيت شاهين علا العويل، بكت الزوجتان القديمة والجديدة معاً، وعلى وقع بكائهن بكى الطفلان الصغيران. أما ابنته الكبرى فكان تسير هنا وهناك، باهتة اللون متورمة العينين، تنظر إلى أبيها بوجل، كما لو أنها تنظر إلى ميت. صرخ شاهين على الباكيات غير مرة وأمرهن بالتوقف عن البكاء. لكنه أحس بأنه خسر قوته، ولا طاقة لديه لفعل شيء.. أيتكلم أم يصمت؟ أيبكي أم يضحك؟ كان حزن العائلة يطغى على كلماته المضطربة. اعتقد شاهين أن مسيحيي القرية سيتوافدون إليه لائمين معاتبين، وكان مضطرباً بسبب ذلك، إلا أن اليوم كله مر ولم يأته أحد، فبات ذلك يقلقه ويزيد من الضغط على أعصابه. فليأت

الكاهن جريس الذي التقى به صباحاً على الأقل، أو الراعي كميل.. فليأت أي واحد منهم، لا فرق.. كان ليحدثهم عن حزنه، وليشرح لهم أنه لا يستطيع أن يصير مسلماً.

لم يأته أحد منهم، شعر شاهين كما لو أنه يعيش حلماً، وأنه استيقظ في مكان بعيد لا عودة منه، وحوله كل شيء غريب، الناس والبيوت والطبيعة. هناك يغدو أي شيء يذكره بوطنه عزيزاً.. ورغب في أن يبذل كل شيء في سبيل العودة من حيث أتى، لينظر من جديد إلى الجميع كسابق عهده بهم.. لكن لا سبيل إلى ذلك. باتت الغرفة ثقيلة الهواء كالقبر. لا شيء يقوم به داخل المنزل، ولا رغبة لديه للخروج منه. إن تمشى في البيت فسيصطدم بالبكاء والعويل، وكان مرتعباً بشكل خاص من ابنته الكبرى. فأمامها كان شاهين يشعر، لسبب ما، بذنب أكبر من ذاك الذي يشعر به تجاه باقي أفراد العائلة.. لا خيار له إلا الخروج إلى القرية.. إلى المسلمين والمسيحيين. لكن شاهين شعر بأنه يخاف من الناس.. شعور مستجد عليه، لم يراوده من قبل.

قبل غروب ذلك اليوم تقاطر المسلمون وفداً إلى بيت شاهين، المعلم، والأمير، وإمام المسجد، وعدد من الرجال. كانوا نحو عشرة أشخاص. لا بد أنهم عرفوا بالخبر.. فلماذا سيأتون إن لم يكونوا قد عرفوا؟ أحقاً أتوا ليعذبوه؟ عجباً كم هم قساة وأشرار. دخلوا، كانت الابتسامات مرتسمة على وجوههم، كانوا مبتهجين كما لو أنهم في يوم العيد. هنأوا شاهين بتركه الضلالة واتباع الصراط المستقيم. كان شاهين يراقب وجوههم من خلف ضباب كثيف. يقولون شيئاً ويقول.. لعله لا يقول ما يجب أن يقال.. والمسلمون يستمرون في التبسم حيناً والضحك حيناً آخر. كانوا ينتظرون أذان المغرب ليصطحبوا شاهين معهم إلى المسجد.

ـ أتأتي معنا؟
ـ نعم، أنا جاهز...

في الخارج صدح صوت المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. ردد المسلمون وراء المؤذن همساً في لحاهم، نهضوا وتوجهوا إلى المسجد. انطلق شاهين خلفهم. عند الباب كانت ابنته الكبرى، عندما مر بها المسلمون غطت وجهها بطرف منديلها، وعندما وصل إليها شاهين كشفت وجهها وبادرته بوقاحة: أنت.. إلى أين؟ شاهين لم يقل شيئاً. كررت: قل لي إلى أين أنت ذاهب! بقي شاهين صامتا، ورد باب الغرفة عليهما. تابعت الفتاة: لمَ لمْ تقتلني؟ – بكت فجأة – لم لم تقتلني.. أيها اللعين! قل لي؟ ألم تكن لتمسح عارك؟

وقف المسلمون خلف الباب مستمعين إلى الفتاة.. تظاهر شاهين بأنه عاكف على إقفال الباب، لكن جسمه كان يرتعد.. كان الخوف متجسداً في منظر شاهين.. كان متقوقعاً على نفسه كمطعون. أخيراً، استوى، وتخلص من ابنته لكن الخوف لم يفارقه. كان وجهها شاحباً يميل إلى اللون الأزرق. واتسع خصرها، بدت أنها ستغدو أماً بلا إرادة منها.. كانت تقف حافية القدمين فوق كسرات البحص الحادة المزنرة لحواف السطح، رجلاها بيضاوان ممتلئتان، تتناثر عليهما كدمات وجروح. ركضت أمها نحوها وسحبتها من يدها. لكن الفتاة تخلصت من قبضة أمها وصرخت خلف شاهين:

ـ أذاهب أنت؟.. فلترحل.. إن عدت فسأقتلك! أتسمعني... أيها الجبان؟ – اختنقت الفتاة بالكلمات.

ـ فتاة شجاعة.. أشجع من صائدي الأسود – ضحك المسلمون متهامسين في ما بينهم – فلنذهب.. ألا ترونها.. امرأة حامل.

كما كانت الحال عند وصول شاهين إلى شبعا في ليلة دافئة.. كانت تلك الليلة. أشعة الشمس الأخيرة كانت تنحدر من قمة حرمون، أما الوادي فكان يسبح في ضباب ليلكي. مياه النبع تصخب متجهة إلى تحت، والصخور الرمادية المعلقة فوق القرى ترسل ظلالها القاسية مهددة الناس، واثقة بجبروتها. منظرها مرعب، كما لو أنها كائنات حية. ماذا لو داهمها النعاس في هذه الليلة الحالكة وارتخت أيديها المتشبثة بالجبل فتدحرجت بهياكلها المدمرة ساحقة القرية ومن فيها؟

كان المسجد مزدحماً بالناس على غير عادته. قاد الفضول الجميع للنظر إلى المسيحي السابق، العدو الأقوى للمسلمين، الذي صار مسلماً. وعند وصوله إلى المسجد، جاهد المحتشدون أن يبدوا غير مبالين، محاولين عدم الالتفات إليه، هاوين برؤوسهم فوق حصائر القش، يتمتمون صلواتهم. وقف شاهين في زاوية المسجد، منحني الرأس كما يفعل المسلمون، لكنه لم يصلّ. كان يزفر بين حين وآخر كما لو أنه يحس بالاختناق، محولاً ثقل جسمه من قدم إلى أخرى، كحصان موثق اللجام يتم ترشيفه بالماء. بدا هادئاً جدا، كمريض لا يأبه بكل ما هو حوله، ولا يهمه إلا ما يؤلمه.

ما أن انتهى الناس من صلاتهم، حتى شرع المعلم بموعظة. اعتلى درجات منبر المسجد، نثر حبر عينيه على الحضور، وطوى يده العظمية إلى بطنه، متكئاً بها على خشبة المنبر. تمازج وجهه الأبيض مع عمامته البيضاء، وتمايزا عن العتمة المحيطة بهما من زوايا المنبر. بدوا كبعقتين بيضاوين. وقف طويلاً بلا حراك كحجر، وأخيراً هزَّ الكيس المخملي المعلق بوجهه، وبدأ يتكلم ببطء، بلغة الكتب الرسمية، ممغطاً حروف العلة:

- بسم الله الرحمن الرحيم. إن الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونشكره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. أرسل أنبياءه بالهدى ودين

الحق هداية للعالمين، إبراهيم ويعقوب وإسحاق وموسى وهارون وإسماعيل، ونوح وعيسى بن مريم، كلهم أوحى إليهم الله سبحانه وتعالى. ثم أرسل إلى الناس خاتم النبيين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأوحى إليه بالقرآن الكريم، لينجي الناس من الضلالة ويقودهم إلى الصراط المستقيم. إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.. عليكم بكتاب الله وسنة نبيه، فالسنة كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق...

عباد الله، أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم! الإسلام دين الحق، لا كذب فيه، فكل من فتح الله عينيه وأذنيه وقلبه، عليه أن يؤمن بالله الواحد وبنبيه محمد وبكتابه الكريم. وأمامنا اليوم مثال، منذ وقت قصير كان نصرانياً ضالاً، تقوده طريق الضلالة إلى النار، أما اليوم، فإن الله العظيم أنعم عليه، وهداه إلى الطريق القويمة الموصلة إلى الجنة.

التفتت بعض الرؤوس ناحية شاهين هدلا، حيث كان في زاوية المسجد، لكنه كان واقفاً على حاله، بلا أي حركة ينظر نحو الأرض. تابع الواعظ:

ـ تذكروا أن المؤمنين بالله وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم والفاعلين للخير قد أعد الله لهم بعد موتهم جنات النعيم. «ولمن خاف مقام ربه جنتان.. ذاتا أفنان.. فيهما عينان تجريان.. وفيهما من كل فاكهة زوجان». نوع طعمه كطعم فاكهة الأرض ونوع آخر لم يذقه أحد على وجه الأرض. ويكون أهل الجنة «متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان». وفي الجنات «قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس من قبلهم ولا جان.. كأنهن الياقوت والمرجان». حور عين هن ليل نهار مستعدات لإسعاد أهل الجنة. أما أهل الجنة فـ«متكئين فيها على الأرائك، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا... ويطوف عليهم ولدان مخلدون، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا».

تذكروا عباد الله أن يوم الحساب آت. وأن الله سيرسل عيسى بن مريم إلى الأرض، وحينذاك سيعرف الجميع الفرق بين الدين القويم والضلالة. «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون».. لكن صرختهم ستكون عبثاً. فلا تقوم الساعة حتى ينزل ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير كما قتل الخنازير أول مرّة في حياته الدنيوية.. أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وسيحكم عيسى ابن مريم وقتئذ بأحكام القرآن الكريم...

فجأة، وسط الصمت المطبق، علا صوت شاهين الأجش: كذب! أنت تكذب يا ابن الكلب!

وقف المعلم في مكانه فاغراً فاه. يده الممدودة جمدت في منتصف الطريق. تحولت جميع عيون المصلين إلى شاهين. كان كظل في عتمة المسجد الليلكية. حل صمت ثقيل. بدا وكأن الواعظ والمصلين، تعاونهم جدران المسجد، في محاولة تحليل تلك الكلمات القاسية المتلفظ بها. ثم فهموا جميعاً حجم الجريمة. بدأ الناس بالهمهمة والجدران بالترداد. صرخ شاهين مجدداً: أنتم الخنازير، و(...)...

بدا واضحاً أنه لا يفقه ما يتفوه به، إنما غلبته رغبة واحدة تلخصت بالإساءة إلى الجميع، بشتمهم بأقذع الألفاظ بأكبر قدر ممكن، ثم بات يكرر شتائمه، ويزيد عليها كل ما يعرفه لسانه. كان يريد أن يحاسب المسلمين على كل مصائبه. قفز نحو الباب، واتجه إلى الفناء، حيث بدأ من جديد يهذي بشتائم لا معنى أو محل لها. طار صوته فارتطم بالجبال، التي رددت صدى التعاسة البشرية مزاوجة بينها وبين ثغاء معزاة هنا ونهيق حمار هناك. الصرخات المهينة أثارت القرية كلها، وبعض المصلين هرعوا بالخبر إلى ناس القرية قافزين فوق الأسطح والصخور.

خلف زاوية المسجد، التصق عبدالله بالجدار. كان قد رأى وسمع كل ما جرى، أراد أن يركض ليبلغ المسيحيين بأفعال شاهين، إلا أن الفضول غلب رعبه، فزاد من التصاقه بالجدار ونظر بشغف إلى الحشد الواقف أمام شاهين، الذي كان يلوح بيده الكبيرة على غير هدى:

ـ الأغبياء صدقوا أن شاهين صار مسلماً! فهل يمكن أن تنقلب قمة حرمون نحو الأسفل! سألقنكم درساً أنتم ومحمدكم! سأريكم كيف تكسرون الصلبان! كيف تعتدون على شرف البنات! كيف تقضون على الخنازير! كيف تسرقون الأموال!

جن جنون المسلمين. تحلقوا حول شاهين. باتت القرية كلها بصغارها وكبارها حوله. اكتظت أسطح المنازل القريبة بالنساء. وفي الحشد من بعيد كان يظهر بين الحين والآخر وجه مسيحي مرتعب هنا أو هناك. وبدا أن شاهين لم يع أنه في خطر محدق وشيك بعد تلفظه بتلك الشتائم. أراد إهانة أعدائه ومعذبيه.. كان يخرج لوعته مع كلماته ناظراً إلى فوق، إلى الجبال وفوقها السماء، إلى الغيوم المرتسمة شريطا رقيقاً زاحفاً حول قمة حرمون، وكأنها تبحث عن مكان للمبيت.

ـ سألقنكم درساً! سـ (...) ...

في تلك اللحظة انقض أحد المسلمين على شاهين وأمسك به من حنجرته...

مثل شمشون الذي ذهبت قواه مع شعره، فقد شاهين قواه وشجاعته مع خيانته. رأى كيف ينقض أحد المسلمين عليه، يجذبه من رقبته، فكشر عن أنيابه المخيفة كوحش بريّ. كانت يد المسلم الأخرى قابضة على خنجر. ووسط الحشد بدأت تلمع الأسلحة المختلفة. تحت عباءة شاهين، خلف حزامة، كان خنجره ومسدسه كالعادة. إلا أنه لم يمد يده إليهما. كان يحاول أن يتملص من يد

المسلم الملتفة حول عنقه، كي يتابع الصراخ ببعض الشتائم. رمى المسلم عن ظهره جانباً وتابع الصراخ: سأُلقنكم درساً..

نهض المسلم عن الأرض، وانقض مجدداً على شاهين: سأقطع حنجرتك – نحره بالخنجر في رقبته. هجم المحتشدون. وتدافع ناحية شاهين بعض المسلمين شاهرين الأنصال. تكوموا فوقه، طاعنين ملوحين بالخناجر... من خلفهم هرع الجميع ليلقوا بأنفسهم فوق الضحية التعيسة، كومة واحدة ككلاب تعض بعضها البعض وتهدر بغضب ضد مارق تطاول على مقدساتهم لا حول له الآن ولا قوة. لم يعد يُرى شيء من شاهين. كانت كومة حية تتقافز فوقه، تعوي بوحشية على مدى الصوت، وتلوح بأيديها القاتلة.. تتنازعها رغبة واحدة: النيل من شاهين وطعن جسمه المرمي أمامها.

أخيراً بدأت الكومة تتفرق. انحسرت إلى الخلف وتحلقت من بعيد في الفناء وبقي جسم شاهين وحيداً. كان ملقى على الأرض بلا حراك. كان ثلاثة من المسلمين ينزفون، أما المسيحيون فكانوا قد اختفوا جميعهم. استشعرت كلاب القرية بالموت القريب فبدأت بالنباح.. من الجبال القريبة رددت وراءها بنات آوى عواء طويلاً. الجرحى المسلمون ضمدوا جراحهم. همهم الحشد، ولم يشعر الناس بهول ما اركتبته أيديهم.

– أطلقوا النار على الكلب! – صرخ أحد المحتشدين.

– أطلقوا النار على الكافر!

– أطلقوا النار! أطلقوا النار! – رددت الجبال صدى أصواتهم بضحك.

جر أربعة من المسلمين جثة شاهين الضخمة المدماة خارج باحة المسجد: إلى الهاوية! اسحبوه إلى الهاوية! - صرخ الناس من أماكن مختلفة وتردد صدى أصواتهم. هتف الحشد، وبدأ الصراخ يعلو في الأزقة وعلى أسطح البيوت، وفي الساحة على حافة الهاوية، وعند مدخل القرية. اضطربت النساء، بعضهن بكين.. الأمهات الجزعات سحبن أطفالهن إلى داخل البيوت. وسمعت مشادات في أماكن مختلفة.

وقف رجل فوق أحد السطوح شاهراً بندقيته وهو يردد آيات من القرآن: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير»... «فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا»..

صرخ بتلك الكلمات، ثم قفز من فوق السطح راكضاً نحو جثة شاهين.

هناك، تماماً على حافة الجرف، نصبوا ثلاثة أعمدة كركيزة، علقوا عليها جثة شاهين مقوسة رأساً على عقب. كان حذاءا شاهين بنعليهما يتجهان نحو القرية. أما رأسه فكان معلقاً في الهواء متجهاً نحو الهاوية، كما لو أن شاهين كان يرغب بمشاهدة تلاوين الغسق حيث يتدفق تيار المياه تحته.

انطلقت رصاصة واحدة، ارتجفت لها الجبال الغافية. صداها المجنون تردد من الخوف بين الجبال، كما لو أنه يبحث عن مكان يخبئ فيه الصوت الوحيد المرعب. وخلف الطلقة الأولى انطلقت أخريات. استيقظت الجبال وهدرت واهتزت، وامتلأت الوديان بترددات الأصوات. بدا وكأن عدداً كبيراً من الرماة كانوا ينتظرون إشارة بدء إطلاق النار كي يضغطوا الأزندة.

بوف – بوف!

بوف – بوف! – سمعت من مكان قريب.

بوف – بوف! – دوّت في مكان أبعد.

باخ – باخ! – في مكان أكثر بعداً.

توك – توك! ترددت في مكان ما خلف السحب في القمم الزرقاء.

سقط عقال شاهين عن رأسه وتبعته الكوفية، رأسه الحليق كانت تتجاذبه الطلقات فانثنى على رقبته السمينة، كما لو أنه يؤكد: نعم هكذا! هذه الطلقة كانت جيدة، لقد أصابت الأذن.. أطراف عباءته كانت تستقبل الرصاص والنار، بالتلويح بفعل ريح خفيفة.

بوف – بوف!

- انتظروا، ماذا تفعلون! لا تطلقوا النار! – سمعت صرخة يائسة لأنثى.

هرولت ابنة شاهين نحو جثته، مكشوفة الرأس حافية القدمين. كان غطاء رأسها قد وقع أثناء ركضها أما قبقاباها الخشبيان فتخلصت منهما، لتركض بشكل أسرع. لم تنظر إلى أحد من المحتشدين، بل التصقت بجثة أبيها، التقطت عن الأرض يده المستلقية الميتة، وشرعت تقبلها.

في تلك اللحظة انطلقت رصاصة أخرى، تلتها رصاصتان ومضتا في الليل. أرادت الفتاة أن تصرخ بشيء، لكنها لوحت بيدها إلى فوق، ثم ترجعت إلى الخلف وسقطت فوق جثة أبيها المعلقة على السيبة الخشبية الثلاثية الأرجل. تهاوت الأخشاب فوق الجرف، وسقطت جثة شاهين في الهاوية. أما جثة الفتاة فبقيت نصف معلقة فوق الجرف.

ليلاً، سرق المسيحيون الجثتين ودفنوهما وسط البكاء.

كانت محكمة.. إلا أنه لم يتم العثور على الجناة.

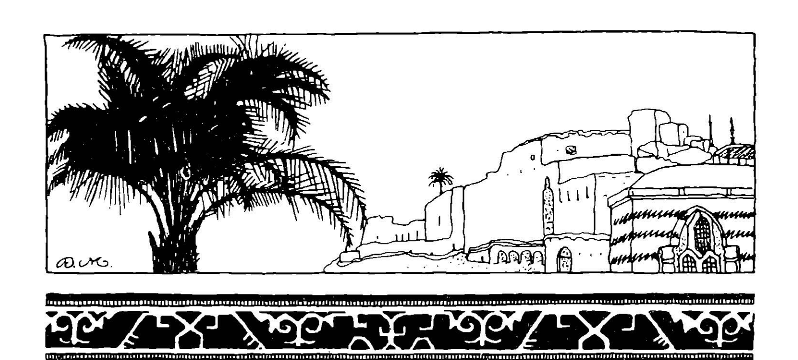
ولا يزال المسيحيون يعيشون حتى اليوم في شبعا تحت الظلم والإذلال.. لا شاهين ليدافع عنهم. لكنهم اخترعوا لأنفسهم أملاً جديداً، فهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه إن لم يكن في حياتهم، ففي حياة أولادهم وأحفادهم، سيأتي الروس إلى أرضهم، ووقتذاك ستنتهي مآسيهم.

شاهين هدلا - هوامش

- الإله بان: ابن هيرميس أو زوس وإحدى الحوريات. كان إلهاً أركادياً لرعاة الأغنام والماشية والصيادين... كان دائم التجول وسط الحقول والغابات يلعب ويرقص مع الحوريات، اختصاصه حماية القطعان والأغنام. وقد اعتبر رمزاً للطبيعة بأسرها. انظر: معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية (القاهرة: مؤسسة العروبة للطباعة، ط٢: ١٩٨٨) ص ٩٢.

- قداسة حرمون: تظهر قداسة جبل الشيخ في عدد من المعابد المنتشرة على سفوحه من معبد الهبارية جنوباً إلى معبد دير العشاير شمالاً. وقد بقيت طقوس العبادة حيه فيها، حتى تلاشى تأثيرها تدريجياً في زمن القديس جيروم في القرن الخامس، بعدما اعتنقت روما المسيحية. إضافة إلى المعابد تنتشر في حرمون أمكنة تشير إلى دلالات دينية مثل وادي مغارة العباد قرب القمة العليا، ووادي الراهب على السفوح الوسطى لجهة الغرب، وعلى رأس الوادي تلة يعرفها الرعاة باسم تلة المسيح، أو تلة التجلي. انظر: مطوية «حرمون: تاريخ قداسة وتراث»، إعداد منير سعيد مهنا (راشيا الوادي: من مطبوعات البلدية، د.ت.).

أكولينا في طرابلس



АКУЛИНА ВЪ ТРИПОЛИ

سافرت أكولينا نحو القدس قبل نحو عامين. ككثيرات من المؤمنات المسنات أرادت أن تنتهي حياتها في الأراضي المقدسة. ما تملكه من المال كان ليمكّنها من العيش في القدس لبضع سنين. لكن بالنظر إلى أنها كانت لتعيش مدة أطول مما تستحمله قدراتها المادية، ولن يكفيها ذلك المبلغ، وجدت نفسها مضطرة إلى العمل. عملت في خدمة فتيات روسيات - معلمات المدرسة الأرثوذكسية الروسية في طرابلس.

هناك رأيتُ أكولينا، كانت عجوزا طاعنة في السن ذات وجه خشبي أصفر تملؤه التجاعيد. وتحت حاجبين مرتفعين تحركت عيناها، كانتا شريرتين غير مستقرتين. ثيابها سود، بغطاء رأس مائل، وإذا مشت تضرب الأرض بحذاءيها. كانت تتحدث بحدة، وكأنها غاضبة من أمر ما. تغمغم، هي ترمي بأصابع ملتوية محدودبة الأطباق والسكاكين والشوك على المائدة محدثة قرقعة.

ما أن حلت في طرابلس، حتى اختفت الحياة المنزلية المسالمة. كانت لديها قدرة على إشعار كل من حولها بعدم الراحة. عمّت الخصومات في البيت، وحلّ الضجيج مكان الهدوء، وبات الجميع في نزاع مستمر. كانت تتعامل مع العرب بلؤم خاص، معتبرة أنهم شعب حقير، يعيش على وجه البسيطة بطريقة غير مشروعة. وبين الخادمات العربيات في البيت اعتبرت نفسها سيدة نبيلة، وكانت تصبّ ما يعتمل في صدرها من الحقد عليهن، ومن خلالهن على الأمة العربية كلها.

في يومها الأول هجمت على الخادمة العربية حنينة، وهي فتاة لطيفة جميلة. غضبت عليها أكولينا لأتفه الأسباب، كانت تحاول الإمساك بدجاجة في المطبخ عندما ظهرت حنينة ووقفت قرب الباب.

ـ إلى أين تشيحين بنظرك أيتها الغبية بنصف لسان! أمسكي الدجاجة! – تهجمت عليها أكولينا.

ـ شو، الدجاجة؟ – سألت حنينة، التي لا تفقه شيئاً من حديث أكولينا بالروسية.

ـ سأعطيك «جاجه» – صرخت أكولينا في وجه الفتاة وزمت عينيها بغضب – أي «جاجه»؟ أنا أقول لك «كوريتسا» (دجاجة بالروسية). – وتوجهت نحوها ملوحة بقبضتيها الكبيرتين. اضطربت الفتاة واصفر وجهها وصارت تصرخ. ركضت إحدى المعلمات الروسيات نحو المطبخ.

ـ ماذا تفعلين يا أكولينا.. ألا تخجلين من نفسك؟

ـ يا سيدتي، أقول لها «كوريتسا»، وهي تقول «جاجه»؟ أي «جاجه» هذه يا سيدتي؟

ـ نعم، هي كذلك بلغتهم يا أكولينا، بالعربية اسمها دجاجة.

ـ أي لغة هذه العربية! لغتي جميلة، ولا أجمل! «كوريتسا» ستكون كذلك «كوريتسا» وليس «جاجه». كيف يفهمون بعضهم البعض يا سيدتي؟ عجباً، يتلفظون بأشياء غير مفهومة.

وحدها الخادمة جليلة استطاعت أن تتفاهم مع أكولينا، وذلك فقط عبر المبالغة في احترامها. كانت فتاة وافرة النشاط، تؤدي المطلوب منها بسرعة فائقة، كما لو أنها تتواجد في خمسة أماكن في لحظة واحدة.. تمسح الأرض، تتحدث وتضحك وتمازح، تقرش الفستق الحلبي، تغني، وتطرد القطط والكلاب الشاردة، وتركض كالريح بين طبقة وأخرى تلبي حاجات من يناديها. كانت تتحدث بسرعة كذلك، عباراتها تبدو كجملة واحدة متصلة يصعب فهمها. وجهها الأسمر الصغير كان يعكس أدق تفاصيل مزاجها، حزن، فرح، ضحك، ألم، رضا، مكر.. كما لو أن وجهها مشكال عُلّقتْ عليه عينان صغيرتان لفأرة. وكانت تبث النشاط، رفيقها الدائم، أينما حلت.

تلك الفتاة استطاعت أن تتفاهم مع أكولينا، حتى باللغة العربية البغيضة، من اليوم الأول لظهور أكولينا، عرفت جليلة أي باب تأتي منه الريح لتسده وتستريح، تعلمت كيف تلقي التحية بالروسية من إحدى المعلمات «زدرافستفويتي أكولينا!» (تحية بصيغة الاحترام). في اليوم التالي، ومنذ الصباح الباكر أتت جليلة إلى المطبخ، مملكة أكولينا، دخلته بهدوء وتواضع على هيئة المذنبين، حيّت أكولينا باحترام وهي تقبل يدها. لم تسحب العجوز يدها، بل نظرت إلى الفتاة بعينين نصف مغمضتين، يملؤهما الحنان، من تحت حاجبين مرتفعين. ومنذ ذلك اليوم واظبت «جليلكا» على تحية أكولينا الصباحية. في المقابل، لم توبخها أكولينا ولم تضربها، وكانت تطعمها جيداً، وأبدت تجاهها اهتمام الأم بابنتها.

لم يكن لأكولينا أولاد، ربما لذلك السبب كانت دائمة الغضب على العالم كله. كان لديها زوج، لكنها هجرته منذ زمن بعيد. وعبرت عن فوائد ذلك للمعلمات الروسيات، شارحة أهمية «الحرية» في الحياة.

ـ ولِمَ الزواج يا سيدتي؟ هو مصدر للقلق فحسب. لدي ابنتا أخ. إحداهما متزوجة لديها أطفال وهم يسببون لها إزعاجاً دائماً، ليلَ نهار لا تعرف الراحة، تركض وراءهم في الوحول حتى أذنيها. أما ابنة أخي الأخرى فلم تتزوج، وتعيش في أحد الأديرة. أغطية سريرها بيضاء أنيقة، وتأكل كفايتها. تحبها رئيسة الدير، وهي تعزف على الكمان، ستغدو رئيسة الكوْرَس. تعيش حياة رغيدة، ليست كحياة اختها!

ـ لكنك يا أكولينا كنت متزوجة أيضاً!

ـ تلك حماقة من والدتي، كل ذلك غباء! وما حاجتي بزوج! في أوديسا قلت ذلك لأحد صغار الموظفين، بات يطالبني بوثيقة زواجي. قلت له كذلك: يا سيدي لا تقل لي ذلك، وثيقة زواجي! وما حاجتي بزوجي، وما حاجته بي؟ يبدو أنك تريد روبلين كاملين في أسنانك.. قل ذلك! خذهما ودعني أمرّ. أرأيتن؟ الزواج مصدر قلق دائم. أنا سعيدة أعيش وحدي في الديار المقدسة..

الباعة في سوق طرابلس كانوا يخشون أكولينا، يخشون شخصيتها العنيدة ونظراتها الشريرة. كانت دائمة الصراخ في السوق، تلقي سلتها في وجه اللحام، ترمي الفاكهة والخضار في الشارع. وفي أحد الأيام عادت من السوق غاضبة مذهولة.

ـ سيدتي، قلت له لا تعطني من هذا اللحم، بل أفضل منه، أريد لحم الفخذ. أعطني منه! فجحظت عيناه وكأنه لم يفهم.. وكأنني لا أتحدث إليه بالروسية!

ـ نعم يا أكولينا، كان عليك أن تشيري له إلى ما تريدين، فهو لا يفهم اللغة الروسية. ـ قالت المعلمة.

ـ كيف لا يفهم؟ ومن أين اخترعت هذه اللغة العربية! ـ انقضت أكولينا على المعلمة ـ لا وجود للغة اسمها العربية. المسيح أي لغة كان يتحدث؟ ها! الرووووسية! طبعاً. هذا يعني أن اللغة العربية اختراع غير شرعي. ولماذا لا يساعدنا أبونا القيصر.. لكنت أريتهم ما هي اللغة العربية! لكنت أجبرتهم خلال يومين على التحدث بالروسية جميعهم.

خرجت أكولينا، ثم باتت تتمتم لفترة طويلة.

ـ حسناً، ما المشكلة في «راز، دفا، تري» (واحد، اثنان، ثلاثة)، مفهومة وجيدة. أما لديهم فـ«تري» تصير «تلياتا» (عُجُول). بالروسية «ميلو» أما لديهم فـ«صابون» (الشخص المتنفس بصعوبة). قراصنة ولصوص هؤلاء العربان الملاعين. أرهقوني.. كالكلاب!

وهكذا مرّ الوقت. كانت أكولينا تهاجم «العربان» وتصارعهم. ومن بين جميع حراس البيت وخدمه لم تتودد إلا إلى جليلة. المعلمات صبرن على سوء طباع العجوز الشريرة، فمن أين لهن بامرأة روسية ذات طباع حسنة في طرابلس. ذلك أمر صعب جداً. فالعجائز الروسيات كن يلتصقن بالأماكن المقدسة، ليمتن على مقربة من ضريح المخلص. قليلات هن اللواتي يمكن العثور عليهن بعيداً عن القدس.

وهكذا قضت أكولينا أيامها، أحياناً، كانت ترافق المعلمات إلى شاطئ البحر للسباحة، تراقب القناديل وتسميها «النار في الماء»، وعلى الشاطئ الرملي تتمشى لتجمع الصدفات، برأيها تنفع إما لتنظيف السكاكين أو للشفاء من الحمى. في السوق، كانت تتفاجأ لدى رؤيتها الوجوه السود لعمال الجمارك. تقول إنهم يبدون كالبشر، لكن لديهم جلداً اصطناعياً. ولو حدث أن نظر أحدهم إليها للوحت بقبضتها تحت أنفه ولنصحته بإزالة صبغة الأحذية السوداء عنه. أما في البيت فكان همها إيذاء الخادمات العربيات، كانت تعطيهن طعاماً أسوأ من طعام الكلاب والقطط. وكانت تتجنب التلفظ بأي كلمة عربية.

وحدث أن بدأت رائحة البخور تنتشر في البيت أكثر فأكثر، خاصة في الليل. كانت غرفة أكولينا غارقة في الدخان.

– أكولينا، ماذا تفعلين؟

– أشعل البخور، إنه كأوراق الشاي، أتشمين رائحته يا سيدتي؟

– أعرف ما هو البخور. لكن لماذا؟ أتطردين الشيطان؟ – قالت المعلمة فاهتزّت أكولينا.

– ألديك قوة الصليب؟ كيف يمكنك أن تعرفي يا سيدتي؟ نعم أطرده فهو نجس. يعذبني، ولا يمنحني الراحة. أريد أن أعيش في القدس.. لكن لا! ركضت خلف قطعة راحة الحلقوم إلى طرابلس.. أليس عدوي هنا؟ أنا قطة مسنة غبية، مهانة.

– حسناً أكولينا، سأقرأ لك «فليتمجد الله» – قالت إحدى المعلمات.



لكن «فليتمجد الله» لم تساعدها كذلك. كان دخان البخور ينبعث من ثياب أكولينا وهي تقرأ صلواتها ليلاً، أما نهاراً فكانت طباعها تزداد سوءاً، حتى أنها باتت تؤذي جليلة كبقية الخادمات العربيات. وفي أحد تلك الأيام رمت أكولينا بطيخة على رأس أحد الباعة في السوق، لمجرد أنه أراد أن يضعها على الميزان. «أي شعب ملعون هذا!» قالت أكولينا عند عودتها إلى المنزل «لا يبيعون على الطريقة المسيحية، يزينون البطيخ والشمام والخيار.. ويعدّون التفاح!».

ولتكتمل مصيبتها، مرضت أكولينا.. أصيبت بالحمّى الطرابلسية. أرسلت المعلمات وراء الطبيب، لكن أكولينا لم ترد التحدث إليه حتى من خلال مترجم. «لا يستطيع التحدث بالطريقة المسيحية، فأي نفع من علاجه!»، حتى أنها رفضت تناول الدواء الذي وصفه لها، ورقدت بصمت حاقد في غرفتها. وحدها جليلة كانت تأتيها مصطحبة معها الحيوية والسرور. كانت تسأل أكولينا عن صحتها، تتحدث إليها بمودة، تروّح عنها.. تلبسها وتنظف الغرفة. أما أكولينا التي لا تفهم أي كلمة، كانت تراقب جليلة بعينين حنونتين. ولمّا كانت جليلة تغني لأكولينا أغنية، بغض النظر عن الألم الحاد في رأسها، كانت تستمع بإخلاص إلى الرجز العربي الرتيب. وتقول لها أحياناً: لو استطعت التحدث بالطريقة المسيحية لكنت فتاة جيدة...

وللترويح عن أكولينا، تعلمت جليلة عبارة روسية جديدة. كل صباح، عند وصولها، كانت تصطنع الجدية على وجهها الطفولي، وتسأل: «كاك زدوروفيه، أكولينا؟» (كيف صحتك أكولينا؟). وهكذا، تحسنت صحة أكولينا وباتت تمشي قليلاً. في وقت مرضها، باتت على قناعة بأن العدو عذبها، أما الله فعاقبها لأنها ركضت خلف قطعة راحة الحلقوم، مبتعدة عن القدس.

مرة، يوم الخميس، وهو اليوم الذي تصل فيه السفينة الروسية إلى طرابلس، أعلنت أكولينا أنها ستغادر. لم يمانعها أحد. خرجت غاضبة من البيت، ولم تودّع أحداً، سوى «جليلكا». احتضنتها في المطبخ وقبلتها طويلاً ورسمت عليها الصليب بعينين دامعتين. أما جليلة، فعلى عادتها، قبلت يد أكولينا وقالت لها «دو سفيدانيا، أكولينا!» (إلى اللقاء).

بعد مغادرة أكولينا للمنزل. جلست جليلة وحيدة صامتة هادئة، تفكّر في أمر ما. ثم فجأة، كما تفرط حبات سبحة بدأت تركض وتطير كنحلة بين طبقتي المنزل.

أكولينا في طرابلس - هوامش

- «جليلكا»: صيغة تصغير وتحبيب بالروسية لاسم جليلة.

- أتريد روبلين كاملين في أسنانك؟: تعبير رائج. فصفة الكامل ألحقت بالروبل الفضي. وهو كناية عن أتريد رشوة؟

- ألديك قوة الصليب؟ نعم أطرده.. هو نجس.. عدوي.. العدو عذبها: لا يتلفظ المؤمنون البسطاء باسم الشيطان بل يرهبون ذلك، ويتحدثون عنه بصيغة الضمير المفرد المذكر الغائب. وقد ميّز كوندوروشكين تلك الألفاظ في الأصل.

كوكوكو



KO-KO-KO

غير بعيد عن صيدون القديمة، على أحد سفوح جبال لبنان، فوق تلة مطلة على البحر المتوسط، ينتصب دير أُونيّ. يقف وحيداً، محاطاً ببساتين شاسعة. أشعة الشمس تلمّع أشجار الليمون والبرتقال والرمان، بالأخضر الفاتح، تبث عبير الزهر وتلاعب الأوراق. الأخضر يحاصر الدير، ويزحف نحو جدرانه الرمادية الباردة الحزينة محاولاً ستر عريّها. غصينات عرائش العنب الطرية تتسلق الجدران كطفل لعوب، وتتمدد فوق الأسطح الملساء للحواف. وتتدلى منها، عبر قضبان حديدية، عناقيد صغيرة شفافة.

ومن الدير في شتى الاتجاهات لا تقع العين إلا على مشاهد واحدها أجمل من الآخر.

إلى الغرب منه، نحو الأسفل، تمتد زرقة البحر إلى ما لا نهاية، ترسل بنسائم رذاذ الأمواج المسكر إلى الأنفاس. وتمخر عباب صفحة الماء باخرة كوحش أسود حيناً، ومراكب ذات أشرعة حادة كالأشباح أحياناً. وتطوف بينها سحابة خفيفة قبل أن تختفي بين أشجار غابة تلطف تجاعيد لبنان.

السماء كالبحر هنا، والبحر كالسماء. هنا مملكة اللازورد المعلقة فوق هاوية.

عندما يكون البحر هادئاً، يستلقي على شاطئه، يلاطفه. يستمتع بفرح الشمس، تلمع أشعتها فوقه، وتومض ألواناً مختلفة. يستلقي مستسلماً للخدر اللذيذ. يرسل أنفاسه الرطبة إلى الجبال المصغية إلى تنهداته، ملقياً على الروح سلاماً يعزّ وصفه. وحولها يحلّ سحرُ السكينة فتستسلم الروح للجمال. ترسل الشمس إليه قبلاتها الملتهبة من السماء، تحاول أن تخترق زرقته الزجاجية نحو القعر. تذهب قبلاتها عميقاً فيه، فيتسلل القمر من وراء الجبال متصدراً حشداً من النجوم.. وطوال الليل لا يشيح البحر بنظره عن روعة ذلك الوجه الناصع.

لكن، عندما تهب الرياح، تخضرّ صفحة الماء وتتكسر كزجاج، تزبد وتنقض على الشاطئ ذي الأسوار الضخمة.. وكأنها تريد تحطيم صدر لبنان الحجري، تريد أن تطال رأسه العالي الأشم. تنقض عليه كقطيع أسود غاضبة تتبدد، في سباقها المحموم من أعماق الشيب الغامضة، تتلوى فوق ثعابين ضخمة، متألقة رؤوسها بأشعة الشمس. يتبرم البحر من الضيق، ينفث غضبه على الحواف الصخرية للشاطئ ذي التجاعيد الشقراء، ينفخ بقوة وقلق من صدره المرتجف. تصل إلى أسفل الدير ضوضاء مكبوتة غير منقطعة، تبعثها العاصفة.. مصحوبة بآهات البحر وهو يحكي للشواطئ أسراره القابعة منذ الأزل في أعماقه.

إلى الشرق من الدير تنتصب جبال لبنان، تحجب عنه ما خلفها. تتبعثر فوق المنحدرات الكروم وغابات الأرز، وقرى خلف قرى في الوديان فوق تموجات السفوح كأعشاش طيور تنتأ على خلفية البساتين والكروم. وبينها تتسكع الدروب الضيقة، تختفي في التشعبات.

والجبال يقف واحدها وراء أخيه، وإلى الأعلى في المدى الضبابي ترتفع القمم عارية جامدة باردة مشربة بالوردي. وإلى الأسفل، قرب البحر، غابة نخيل. نخلاتها يهززن رؤوسهن متأملات القمم.

مياه النهيرات تتدفق من سفح الجبل نحو البحر بلطف ومودة، تندمج بمائه قبل أن تغسل الصخور العارية والرمال.

ومن الجبال البعيدة تصل مياه عذبة من ينبوع إلى الدير لتروي حدائقه وحقوله. تتدفق المياه إلى حوض كبير، يتوسط فناء الدير، يبدو كبحيرة. تطل على تلك البركة شبابيك الدير ذي الطبقتين كلها. في الدير معهد للأولاد السوريين. الصفوف وغرف الخدمة في الأسفل، وفي الطبقة العلوية غرف النوم، وغرف المعلمين وجناح رئيس الدير. ترسل المطرانية إلى الدير، من أبرشياتها كل عام، أولاداً من المشردين والأيتام والمعدمين ممن لا ملجأ لديهم على وجه الأرض. هنا، يربّون الأطفال على وقع الخوف وحب البابا وعصمته الإلهية في أمور الكنيسة. وأكثر ما يتم التركيز عليه في تربية الأولاد يتمثل بالالتفات إلى الاختلافات في المعتقدات المسيحية، وضلالات الأرثوذكسية والبروتستانتية. هنا، فوق أمواج المتوسط الزرقاء، وتحت سماء الجنوب الرائعة، المفعمة بعبير زهر الليمون والبرتقال، يتم إعداد الناس لصراع ديني مقبل. خلف واجهة الرهبنة، ومن سن مبكرة، تجري محاولات إخفاء الفطرة المتسامحة للقلب البشري.

جميع المعلمين هنا، بدءاً من رئيس الدير - مدير المعهد، والرهبان هم من السوريين.. معظمهم لم يحظ بالتعليم ويفتقر إلى التهذيب. يتعلم في المدرسة نحو خمسين تلميذاً. إلى جانب المواد الدراسية الدينية المعتادة، من المفترض أن يتعلموا اللغة الفرنسية احتراماً لراعية الكاثوليكية العظيمة. لكن، منذ وفاة أحد كبار الرهبان، توقف تعليم اللغة الفرنسية للأولاد. وقد قصد رئيس الدير القنصلية الفرنسية في بيروت غير مرة، وكرر طلبه، أليس في القنصلية أي فرنسي يعلّم في ديره؟ لكن إلى الآن لم يتوفر.

وفي أحد المساءات الصيفية الهادئة، وصل إلى بوابة الدير أوروبي تعلو رأسه قبعة قشية كبيرة. كان في معطف مرقع مجعد، وسروالين باليين، وفي حذاءين جبليين مغبرين. غطت لحية سوداء كثيفة، بشعرها الطويل المجعد، وجهه النحيل الملتوي. أنفه الدقيق، شفتاه المزمومتان المنحدرتان بزاويتيهما إلى الأسفل، عيناه الغامقتان الحائرتان، كلها ملامح أعطت وجهه إيحاء التعب المَرَضيّ. ودلت على حياة غريبة وغير مريحة عاشها. لوح لكلب الدير بغصن زيتون معقود يحمله، ودخل الفناء.

وقف ونظر حوله. هناك كان أولاد بأوضاع مختلفة بين جلوس ووقوف، في أيدي بعضهم كتب. كانوا يراقبون تمدد ظلال جلابيبهم الرثة القاتمة على جدران الدير الرمادية والشمس ترسل إليها أشعتها الأخيرة قبل المغيب في البحر. تفاجأوا من المظهر الغريب للزائر. اقترب أحدهم بفضول منه، سأله باللهجة العربية المحلية عن هويته وبمن يريد أن يلتقي. هز الغريب رأسه، كإشارة أنه لا يفهم من العربية شيئاً. حاول التلميذ أن يتذكر شيئاً من دروس اللغة الفرنسية القديمة، وبالكاد استطاع التلفظ ببعض الكلمات. انشرحت أسارير الغريب.

- أنت تتكلم بالفرنسية - قال ذلك بفرنسية صافية - رائع! قل يا عزيزي لرئيس الدير إن معلم اللغة الفرنسية قد وصل، ويرغب بلقائه.



Онъ поцѣловалъ обуглившійся трупъ и побѣжалъ дальше, погрозивъ кулакомъ.

تحلق جميع الأولاد حول المعلم الجديد، وتفحصوه بفضول من جميع الجوانب. ثم التحق بهم جميع الرهبان والمعلمين والخدم.

ـ فرنجي؟ – سأل أحد المحتشدين.

ـ لا يفقه أي كلمة بالعربية!

ـ لماذا أتى إلى هنا؟

ـ هذا معلم اللغة الفرنسية.

ـ كيف ستتحدث إليه يا بطرس؟ – سأل الأولاد الخادم – بأي لغة؟

ـ وعمّ سأتحدث معه؟ فليتحدث هو معي إذا أراد – قال الخادم بطرس.

ـ مضحكون هؤلاء الإفرنج! يأتون مثل الأطرش في الزفة، لا يسمعون أي كلمة ولا يفهمون!

أخيراً، انحدر رئيس الدير على السلالم بجلبة. واصطحب الضيف إلى غرفة الاستقبال. وبقي الحشد في الفناء للحديث عن المعلم الجديد. امتد الحديث في غرفة الاستقبال لنحو عشر دقائق. صرخ الرئيس منادياً على الخادم وأمره بإعداد غرفة للمعلم الجديد – يعني أن الأمر تم وسيعيش في الدير وجه جديد. دبت الحياة في الدير. بطرس كان غارقاً في الأسئلة وهو يعد الغرفة ويوضب السرير. أي معلم هذا؟ وكيف سيتواصل معه؟ بطرس كان سعيداً بالوافد وكان يجيب على أسئلة الجميع بطيب خاطر.

ـ ما إن دخل إلى الغرفة حتى بدأ يتفحص زواياها، ويلمسها باصبعه. نظر تحت السرير وإلى السقف. رأى حلقة مدلاة من السقف، فصرخ خائفاً «عقرب! عقرب!». خمنت أنه يخاف من العقارب، جلبت قصبة، وضربت بها الحلقة. حسناً، لقد هدأ الآن.

رافق الضحك كلمات بطرس.

ـ وكيف هو؟ طيب أم لا؟ – سأل أحد التلاميذ.
ـ لا أعرف. من أين لي أن أعرف؟

المعلم إيطالي المولد، وهو يجيد الفرنسية واللاتينية واليونانية بطلاقة، لكن الإيطالية على أي حال هي لغته الأم. أما ما اسم المعلم فلا أحد يعرف غير رئيس الدير، لكنهم، ومنذ اليوم التالي لوصوله منحوه اسماً. هذا ما حدث.

في الصباح التالي، دعا المعلم الجديد بطرس إليه. لفترة طويلة جرب أن يشرح أمراً، كان يحرك يديه، وينقر على الطاولة باصبعه. شرح بالفرنسية والإيطالية واللاتينية. إلا أن بطرس لم يفهم شيئاً. أدرك المعلم ذلك، فجلس على أرض الغرفة ونشر يديه كجناحين وبصوت رفيع رفيع صاح فجأة: كو- كو- كو- كو- كو!

كاد بطرس يطير من الضحك، حتى أنّ المعلم وقف وابتسم بفرح كذلك. سلق بطرس بيض الدجاج للمعلم وأتاه بفطوره.

Très bien. C›est ça, Boutrus! – أكد المعلم راضياً – Bien, bien –

روى بطرس ذلك لكل من في الدير. ومنذ ذلك اليوم أصبح المعلم يعرف بـ«كو - كو - كو».

عاش كوكوكو في الطبقة العلوية بهدوء. خطط لأيامه بشكل دقيق. كان يستيقظ باكراً، ويصلي طويلاً أمام تمثال المصلوب، المعلق في زاوية الغرفة. كان يصلي بصوت عال رنان باللاتينية. تدفقت الصلاة من بين شفتيه بسلاسة وتناغم، كخرير مياه جدول في مجراها الصخري. أي صلاة هذه؟ سأل بطرس نفسه وهو يواظب على الاستماع إلى صلاة المعلم غير المفهومة. كان يحدق في وجهه الشاحب المتعب، ويراقب كيف يشرق شيئاً فشيئاً مع تدفق الصلاة. تلك الكلمات الغريبة كانت تحيط المصلي بالنور.. وكان بطرس يخرج من الغرفة محاطاً بالحيرة. بعد الصلاة، كان المعلم ينادي على بطرس بصوت فرح، ممغطاً اسمه: بطرووووس! ثم يتوجه إلى الصف.

بعد الانتهاء من التعليم، كان المعلم يجلس في غرفته يقرأ ويكتب. وقبيل الغروب كان يصعد إلى سطح الدير يستمتع بالنظر جهة البحر اللامتناهي. ينحدر بنظره إلى مشهد مغيب الشمس الجميل. كان يجلس بلا حراك كحجر، وينظر نحو الغرب، إلى حيث تغير الشمس شكل قرصها، وتختفي شيئاً فشيئاً بشكل احتفالي خلف الماء.

أحياناً، كان كوكوكو ينزل إلى فناء الدير حيث التلاميذ يراجعون دروسهم. كان يجلس إلى جانبهم ويتحدث إليهم بشيء ما. كانوا يفهمون القليل القليل مما يقول، وينظرون إليه بدهشة. لا أحد من الكبار بينهم اقترب من المعلم ليحادثه، بل كانوا يسخرون منه. أما رئيس الدير فقد كان ينظر إلى المعلم بريبة «ما الذي يريده هذا المعلم من الأولاد؟ لماذا يلتصق بهم؟».

كانت لدى كوكوكو نقطة ضعف يعرف بها الجميع، وهي خوفه من العقارب والثعابين. وقد أمن ذلك الأمر الكثير من المرح في الدير. كان التلاميذ يجلبون إلى غرفته عقارب كبيرة وثعابين صغيرة، وكانوا يستمتعون وهم يستمعون من خلف الباب كوكوكو وهو يقفز فوق سريره وهو يصرخ بكلام غير مفهوم، ثم يهرب من الغرفة وقد ملك الرعب عينيه، ولا يدخلها من جديد سوى بعد إخلاء التلامذة للعقارب والثعابين، بعد توسله إليهم. مرة، أحد التلامذة الأكبر سنا، ويدعى ناصيف، أصاب كوكوكو بالهلع. فقد صنع أفعى كبيرة من الورق، وأمن لها مخبأ في كم قميصه. ثم بات يتمرن على إخراجها بسرعة وعلى تحريكها بخفة بإصبعه من جانب إلى جانب. ومع أفعاه توجه ناصيف إلى غرفة كوكوكو متذرعاً بسؤال. هناك، أطلق الفتى اللعوب سراح ابتكاره من كم قميصه، وجعل يحرك الأفعى بالقرب من أنف الإيطالي.

شحب وجه كوكوكو وبدأ يلوح بذراعيه، ويتوسل إلى ناصيف أن يأخذ الأفعى إلى الخارج: cette bête terrible.. لكن ناصيف لم يأبه بصراخ كوكوكو وتوسلاته، بل أخذ يحرك لعبته أمامه إلى أن حشر المعلم نفسه في زاوية الغرفة..

في الدير، عاش تلميذ مريض اسمه سالم. كان يشعر بوحدة حال مع المعلم الجديد، ويكن له الكثير من الحب. سالم، يتيم من أب يوناني وأم سورية. أرسله إلى الدير أسقف حلب، فقد كان والده المتوفي موظفاً لدى الأسقف، أما أمه فقد تزوجت من سوري حملها معه مهاجراً إلى أميركا. حضنت سالم جدته، التي سرعان ما توفيت، فرأى الأسقف أن يرسل الولد الوحيد إلى الدير. في الدير، بقي سالم يتيماً وحيداً، فقد كان الأولاد يتجنبونه ولا يلعبون معه، بل كانوا يحتقرونه. وكان الرهبان والمعلمون يعاملونه بخشونة. كان سالم يجلس دائما في زاوية منعزلة، يحاول أن يحفظ دروسه. ونادراً ما كانت الابتسامة تظهر على وجهه الشاحب الأجرب، ذي الثلاثة عشر ربيعاً.

شعر الصبي بأن المعلم الجديد شخص قريب. فقد تعلم من والده اليونانية، التي مكنته من التحدث إلى معلمه والتفاهم معه. كان المعلم يحس بوجع الصبي المريض، وغالباً ما كان يستضيفه في غرفته. هناك، أطلعه على عدد من الكتب والصور، وسأله عن أمه وأبيه، وحدثه عن نفسه أحياناً.

على سطح الدير، في أحد الأيام، وأثناء مراقبته لمغيب الشمس، قال المعلم للولد:

- عزيزي سالم، لقد جبت دولاً كثيرة، ورأيت مدناً كثيرة، والتقيت بأناس مختلفين، لكن لا أعرف أفضل من هذا المكان. هذا مكان جيد، إلا أن الناس هنا يقومون بأعمال شريرة دائماً. يؤذون أنفسهم، يؤذون الحيوانات والآخرين من الناس..

- لماذا هاجرت من بلادك؟ - سأله سالم باستحياء.

ـ كان لدي، يا عزيزي سالم، بيت وعائلة، وكان لدي ابن، ولد مثلك. كنت غنياً، إلا أن كل شيء انهار. كيف انهار كل شيء، لن تفهم، فمن الصعب الحديث عن ذلك. وقد مات ابني. وبات الناس يسخرون مني. عندما كنت غنياً كان الناس يحبوننب ويحترمونني، أما عندما بت فقيراً فصاروا يحتقرونني. الناس أشرار يا سالم. وطالما هم أشرار، فهم يحترمون ويحبون من يختزن شراً أكثر: المال، والسلطة، والعبودية.. لقد جلت في الكون. والمكان الذي يعجبني أعيش فيه، وإن لم يعجبني أرحل. هنا الوضع جيد، جيد جداً. الجبال، والبحر، ومغيب الشمس.. هدوء وسكينة. أما الناس هنا يا سالم فهم قساة بلا رحمة. أنا أرى، في الواقع، كيف يؤذونك. لكن لا تغضب عليهم. فهم أنفسهم لا يدركون أنهم يرتكبون الشر.. لا تغضب يا سالم...

مسح كوكوكو رأس الصبي، وجلسا معاً لمدة طويلة على السطح الأملس يراقبان الأفق.

* * *

عصر أحد أيام الربيع، بعد انتهاء الدوام، توجه التلاميذ في مسير إلى الوادي القريب، بعد حصولهم على إذن من رئيس الدير. وكانوا بين لاه ولاعب هناك حتى المساء. أنشدوا الأغاني، قفزوا، تسلقوا أشجار البلوط والصنوبر، جمعوا أكواماً من الأغصان الجافة، أشعلوا فيها النيران وباتوا يقفزون عبر ألسنة اللهب. كان كوكوكو معهم، كان ينظر إلى النباتات المختلفة، اقتلع بعضها من جذورها وراح يشرح لسالم كيف تتغذى النباتات، وفائدة كل واحدة منها. شارك أحياناً في بعض الألعاب الجماعية مع الأولاد، ما ولّد لديه ضحكات من القلب. وبدا غريباً للجميع، معلمين وتلامذة، كيف أن معلماً يقفز ويلعب «يا ام اسكندراني».

أثناء لهوهم، وجد الأولاد ثعلباً صغيراً مختبئاً خلف الأحجار. بات الفرح لديهم لا يعرف حدوداً. قفزوا جميعاً وحاولوا لمس ذيل الثعلب، وأذنيه وأرجله. ربطوا الثعلب بحبل وقرروا جره إلى الدير. كوكوكو كان المعترض الوحيد، تحدث بحدة إليهم بالفرنسية والإيطالية، ولكن لا حياة لمن تنادي. قادوا الثعلب إلى الدير مساء. كبيرا التلامذة، ناصيف وحنا، تهامسا في ما بينهما، على ما يبدو بشأن مصير الحيوان المسكين. وأخبروا الآخرين همساً بقرارهما، لكن شيئاً من ذلك لم يصل إلى أذني سالم. تجنبوه كي لا يبلغ معلمه الغريب المثير للسخرية بالخطة.

بعد العشاء، نحو الثامنة مساء، ترك التلامذة كتبهم في صفوفهم وتجمهروا في فناء الدير. أحضر ناصيف الثعلب المربوط، كان ينظر حوله مذعوراً، يحرك أذنيه بعنف ويكشر عن أنيابه. لكن ناصيف كان قد أحكم قبضته على عنق الحيوان، مانعاً إياه من العض. اصطف الأولاد في سلسلة طويلة، مبتعدين عن مدخل الدير المفضي نحو الجبل. أحضر الخادم بطرس قنينة الكاز، فأراق الأولاد الكاز على وبر الثعلب المسكين مبللين ذيله وأذنيه.

ثم آنت اللحظة الاحتفالية. أشعل حنا عود ثقاب.

- انتظر، نحتاج إلى عودين! الأول من الأمام والثاني من الخلف، وإلا سيركض بسرعة ليطفئ النار. أشعل أنت من الأمام! - أمر ناصيف حنا فنفذ.

أشعلا عودي ثقاب في اللحظة عينها، ووضعاهما على رأس وظهر الثعلب المسكين. اشتعل الكاز، وفي تلك اللحظة أفلتا الثعلب المذعور، فانطلق كالسهم عبر البوابة نحو الجبل. ومع كل قفزة كان يشتعل أكثر فأكثر، وما هي إلا ثلاث ثوان حتى اشتعل كله. كانت كرة اللهب تقفز من صخرة إلى أخرى ناثرة خلفها بقايا مشتعلة، يرافقها عواء مخيف كبكاء طفل لا يستطيع التقاط أنفاسه. ركض الأولاد نحو البوابة وهم يصيحون ويلوحون بأيديهم، يضحكون ملء حناجرهم ثم يسقطون على الأرض ويئنون من الفرحة. أما الحيوان المسكين فكان يركض ويركض هرباً مصطحباً الموت معه. كان يرتفع في الهواء ككرة، يتلوّى، ثم يرتفع أكثر.. إلى أن هوى على الأرض. تجمعوا، أرادوا التوجه إلى حيث الثعلب المحروق ومعاينته، وفي تلك اللحظة انطلقت صرخة من فوق. التفت الحشد لا إرادياً نحو السطح الأملس حيث كان كوكوكو جاحظ العينين من الرعب. كان يلوح بيديه ويردد شيئاً ما. سقطت قبعته من على رأسه إلى الخلف، وتناثر شعره الأسود الطويل على وجهه، لكن عينين واسعتين مرهقتين ومضتا ببريق مرعب. قفز كالمسعور من على السطح وفي لحظة كان قرب الأولاد المحتشدين.

ـ أحرقتم الحيوان! O, Dio, che crudeli, brutti, bambini! (يا إلهي، كم أنتم أشرار، قساة، يا أولاد! - بالإيطالية)

وركض باتجاه جسد الثعلب المحروق، التقط الجثة المتفحمة، ضمها، ثم وضعها على الأرض وركض باتجاه الأولاد ملوحاً بقبضته وهو يصرخ بشيء ما.

صباح اليوم التالي، أرسل رئيس الدير الخدم ليبحثوا عن الإيطالي. بحثوا عنه ليومين، وأخيراً وجدوه قرب قمة الجبل تحت شجرة. عاد إلى الدير باهت اللون، جمع أغراضه وغادر في اليوم التالي من دون أن يتحدث إلى أحد بحرف، ومن دون أن يودع أحداً.

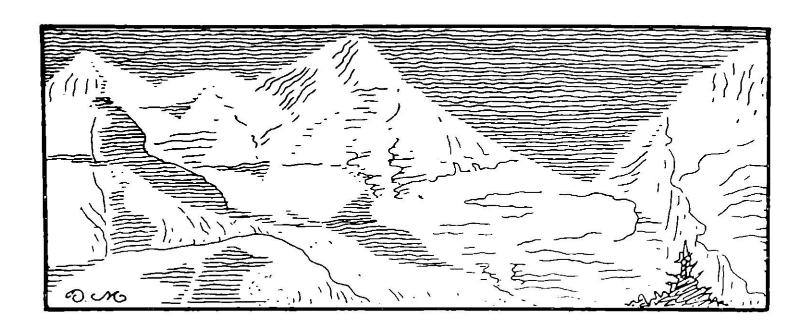
سرعان ما نسي الجميع ذلك الإفرنجي. إلا أن الطفل سالم كان يبكي طويلاً في الليل، ويتذكر بحزن معلمه كوكوكو.

كوكوكو - هوامش

- دير أوني، الكنيسة الأونية، الأونيون: من الكلمة اللاتينية unio، وتعني الاتحاد أو الوحدة. يكثر استخدام هذه المصطلحات في كتابات الرحالة والحجاج الروس، تأكيداً على أن هذه الصفة تلتصق بمن هجر الأرثوذكسية واعترف بالسلطة الروحية لروما. والأونية مذهب من المذاهب المسيحية تأسس نتيجة وحدة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية بزعامة البابا. انظر: الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ب. م. دانتسيغ، ت: معروف خزنه دار (دمشق: دار المدى، ط١: ٢٠٠٨) هامش ص ٣٥٢.

- «يا ام اسكندراني»: لعبة من الألعاب الشعبية تعتمد القفز فوق الظهر، حيث يقف أحد الأولاد عند أول الملعب ويضع يديه على ركبتيه ويحني ظهره، ويأتي لاعب ليقفز فوق ظهره، ثم يبتعد عنه نحو مترين وينحني أيضاً، فيأتي ثالث ليقفز فوق الأول والثاني وهكذا.. ويردد كل واحد من القافزين شطراً من عدّية. واللعبة لا تنتهي إلا بعد أن ينهك التعب اللاعبين أو يأخذهم الملل. والعديّة هي: يا ام اسكندراني/ يا ام عيون الغزلان/ قتلني ما قتلتو/ ما قتل غير بن عمي/ شلح السيفين مني/ دهشهم بذنب عنتر/ وقع القضيب وتقنطر. انظر: القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال، أنيس فريحة (زوق مكايل: دار المكتبة الأهلية، دط: دت) ص ص ٢٤٦-٢٤٧.

في جبال الثلج



ВЪ СНѢЖНЫХЪ ГОРАХЪ

كنا في شهر شباط، وفي السهل بين سلسلتي الجبال كان الفلاحون يزرعون القمح، أما السفوح الصخرية فكساها العشب. كان الضباب يلقي وشاحه بليونة على الوديان، فيبدو جلياً بهاء الجبال، وقد حلّ الربيع الجنوبي مبكراً. ففي وادي الأردن السحيق، كان الدفء قد سيطر على خراج بانياس، ويكاد الهواء يغدو ساخناً. قضينا يوماً هناك، نستمتع بدفء الشمس، نمنا في ظلال أشجار اللوز المزهرة. وفوق رؤوسنا ارتفعت قمة حرمون المثلجة، صعب علينا التحديق في بياضها المتألق.. وبالرغم من تلافينا ملامستها بأبصارنا، إلا أن هواءها البارد كان يأتينا نسيمات مجتازاً الوادي الدافئ. ومع مغيب الشمس، وارتطام أشعتها الأخيرة بالثلوج، سيطرت على الوادي انعكاسات ألوان غريبة وغامضة. لكن ما رسخ في ذاكرتي من تلك الرحلة الأخيرة، هو العبور نحو صيدا، وعن ذلك سأتحدث.

لو كانت سماء ذلك اليوم ملبدة بالغيوم، بطبيعة الحال، لكنّا عانينا أقل، أقل بكثير. للوهلة الأولى يبدو الأمر غريباً بعض الشيء وغير مفهوم. كيف كنا لنعاني أقل، فيما لو امتزجت معالم الجبال بالغيوم، أو لو امتلأت الوديان إلى أطرافها بالضباب الرطب.. هل الغرق في أكوام الثلوج أفضل أم يوم هادئ مشمس؟ لكن حتى اللحظة، والله أعلم، الأمر كذلك، ففي الضباب كان هذا المسير ليكون أكثر هدوءاً. انطلقنا معاً، أنا والألماني فايس، لنعبر من لبنان الشرقي إلى الغربي، وصولاً إلى البحر المتوسط. أردنا الوصول إلى صيدا. في المساء، لم يكن الوصول إلى مقصدنا أكبر همنا، بل مجرد اجتياز الجبال.

كنا قد وصلنا إلى الجديْدة، وبتنا ليلتنا فيها. وعلى عتبة الوديان انهمر مطر ربيعي، أما فوق الجبال بدا الصباح هادئاً مشمساً.

- حسناً، هل سننطلق نحو صيدا، مباشرة عبر لبنان الغربي؟

دليلنا وصاحب الخيول شكري، لم يجب، بل أمسك شاربه بيده اليمنى. حسناً، لقد أمسك شاربه، ومعنى ذلك أنه يستحيل علينا عدم الثقة به. سيغضب شكري.

خيول شكري قوية. لديه فحل عربي فتيّ، يزين الشيب شعره، كما لو أنه رشّ ببرش الجليد. قوائمه طويلة نحيلة، حوافره خفيفة، ورأسه صغير. أما عيناه فمنتفختان كبيرتان رطبتان. كان مدهشاً بشبابه ولياقته، يثير البهجة في النفوس. يتحرك يميناً ويساراً وكأنه يتأرجح. كان هذا الحصان الأشيب من نصيبي. أما فايس، فكان من نصيبه حصان رمادي شجاع، يخطو فيختار طريقه، وكأنه يدرس المسار. لا ينخر ولا ينثر على صخور جانبي الدرب رغوة من شفتيه. لكن أحيانا كان يتثاءب بقوة، ويلوك بأسنانه فضاء فمه الفارغ بلذة وبصوت عال. أما شكري، فكان يركب بغلاً أمامنا، ومعه زادنا.

ها نحن إذن.

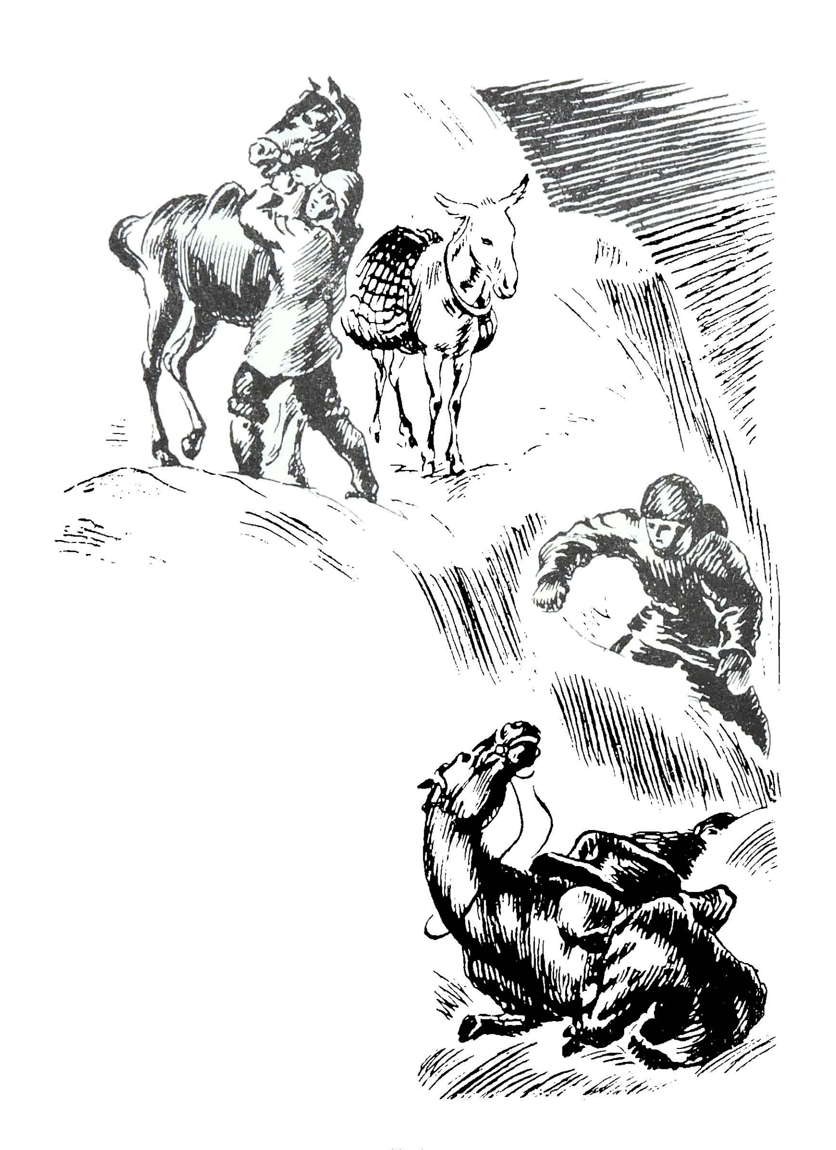
لفترة طويلة تسلقنا سفح الجبل. كانت القمم المزينة لسماء سوريا والمغطاة بالثلوج تقترب منا شيئاً فشيئاً. أما حرمون فعلى الرغم من ابتعادنا عنه بدا قريباً للغاية، ناشراً في الأفق جناحين نسيجهما الثلجي وردي ذو زرقة. لاقتنا قطعان الماعز الجبلي، بعيونها البيضاء وآذانها المتخاذلة، ورافقتنا بنظرات حائرة وهي تشخر من الهواء البارد، وتلتهم العشب الفتيّ. اجتزنا شريط الذوبان الموحل، ووصلنا إلى الثلوج. كان الجو بارداً، فارتدينا ثياباً أثقل، أما الأفق فبدا أكثر دفئاً ووضوحاً واتساعاً، وبدت السماء هادئة.

تسللت إلينا سحابة ثلجية، وغطتنا بضباب فضي متموّج. يبدو أن أمطار الأمس قادت الغيمة إلى التشققات الجبلية، قبل أن يرفعها الصباح إلى الأعالي، فتجمدت، وها هي الآن تنثر ذرات الصقيع. لخمس دقائق سرنا في ذلك الصقيع الحليبي تحت أقواس ملونة. ومن فتحات أنفي الحصانين انطلق البخار كقطع قطن، متساقطة على الدرب الجبلية.

فجأة، أشرقت الشمس وظهرت المعالم واضحة. بدت الغيمة ككرة رقيقة تبتعد عنا نحو منحدرات، تاركة وراءها للصخور والشجيرات زبداً جليديا. ومن على ممر قرب القمم انفتح أمامنا البحر المتوسط أزرق داكناً. مدى بلا نهاية يحيط به الضباب، الذي تحول شيئاً فشيئاً إلى غيوم زرقاء أرجوانية، وذهبية. وبيننا وبين صفحة الماء انتصبت السفوح الغربية البيضاء.

كانت قممها واسعة محدودبة كظهر سلحفاة، مغطاة بطبقة غير عميقة من البياض. وعلى تلك الثلوج آثار عملاقة، منظرها يثير الهلع في النفوس. لا إرادياً بدأنا نتلفت حولنا من الخوف: أيختبئ في مكان ما خلف الصخور وحش الجبال الخرافي؟ ضحك شكري وبدأ يشرح، تلك أثار أقدام بنات آوى، تذيب أطرافها الشمس فتتمدد وتغدو أكبر، فتعتقد أنها لوحش مرعب.

على المرج الثلجي تتناثر عشرات أشجار البلوط الغريبة المظهر. تبدو كعناكب متجمدة، شوهتها الرياح الغربية، تمدّ إلينا بأذرعها الفروية. تناولنا إفطارنا بمزاج مرح، ثم انطلقنا من جديد. عندها، للمرة الأولى انزلقت قوائم حصاني في الثلج، لم يكن عميقاً، فلم يجبرني على القفز عن ظهره، وحملني إلى مكان ثابت. لكنه لم يهدأ لفترة طويلة، وأخذ يكزّ على أسنانه وكأنه يطحن شيئاً. أما البغل فقط طمره الثلج إلى بطنه، انتفض شكري وأزال عنه المتاع، ثم جرف الثلج من حوله قبل أن يسحبه من ذيله. شخر البغل بقوة، وهو ينفض الثلوج عن نفسه، ثم اختنق بصوت بين صهيل حصان ونهيق حمار، إلى أن خرج.



أمامنا كانت الثلوج تزداد عمقاً كلما سرنا. لم يكن بوسعنا التوجه يميناً أو يساراً، سواء أردنا أم لم نرد كان علينا أن نتابع السير على دربنا. آنذاك أدركت أن لا وجود للعبث، فملايين الأقدام طرقت هذه الدرب وحفرتها متعرجة على الجبال لآلاف السنين. وهذه هي دربنا، أي هنا بالتحديد، وليس بالقرب من هنا. فالدروب الجبلية المطروقة هي الأفضل للعبور، والأسهل والأيسر بين كل ما يمكن أن يبدو وكأنه طريق في هذه الجبال. ومهندسو الطرق الحديثة والسكك الحديدية يقرون بضرورة الالتزام بالدروب الجبلية. ذلك ليس عبثاً.

أن نعود من حيث أتينا، لم تخطر تلك الفكرة في بالنا أول الأمر. أي نوع من الجبن هذا! نعم، كنا نأمل أن تغدو الطريق أفضل عما قريب. وأملاً بالوصول إلى أرض صلبة، عض الأشيب بقلق ركبة الرمادي، وضمها إلى صدره. أما الرمادي فداعبه بهدوء بأسنانه مطبقاً على ما يلي الأذنين من رقبته. وهكذا وقف الحصانان متعانقين على ثلج قلق، إلى أن سحب شكري العابس بغله مرة أخرى.

ـ حسناً، الطريق أمامنا ستكون أفضل!

لكن القلق كان يملأ صوت شكري. فكنا نتجه نحو مأزق جديد.. إلى انهيار ثلجي طمر الدرب الجبلية، فساورنا القلق جميعنا. نزلنا عن حصانينا، وتلمسنا الدرب بأرجلنا. باتت قوائم الحصانين تغرز في الثلج الهش، يحاولان ضربه بحوافرهما ونفضه عنهما، يبحثان عن الدرب. أما فتحات أنفيهما المتسعة فتنفث آهات الأسى. يتمايلان من جنب إلى جنب يكافحان، يعضان الثلج بفميهما الحارين، يقاومان، لكنهما كانا يغوصان أكثر فأكثر. القشرة الجليدية كانت تنهار تحت الحوافر، وتتكسر.. وتحتها يفيض بحر الثلج. توقفنا لاسترداد أنفاسنا.

في البداية كان يوماً صافياً، كنا سعداء بالهدوء وبنور الشمس المشرقة، برؤية البحر والمدى المفتوح، بالقمم البيضاء العالية للبنان. وعلى شاطئ البحر إلى يميننا بيروت وإلى يسارنا صور، أما صيدا فكانت الأقرب، أمامنا. لكن كلما كنا نتقدم أكثر تثقل أرواحنا أكثر، وذلك لأن كل شيء كان مرئياً بوضوح أمامنا.. ها هي صيدا الدافئة بحدائقها المزهرة قريبة منا، أما نحن فنسعى نحوها لكننا نسير في حلقات مفرغة.. نتخبط في الثلج ولا نخطو إلى الأمام.

الشمس تغرق في البحر. تغدو زرقته حليبية، تمد أشعتها كحبال إلى الشاطئ، تومض في العيون، وتنشر خطوطاً نارية. ينعكس بريقها على الثلج من حولنا، يميل بياضه إلى الزرقة، فأشعر بالألم.. تثير رائحته الحديدية الباردة اشمئزازي. أي أسى هذا! تمر باخرة، تبدو في المدى الضبابي وكأنها في منتصف النهار.. تلتف متجة نحو بيروت. وبلا إرادة منك تفكر كم هو مريح التجوال على سطح الباخرة، كم هو لطيف أن تبيت في أحد فنادق بيروت النظيفة العامرة بالنور. هناك قرب البحر، دفء ورطوبة. الرجال والنساء يتنزهون بثياب صيفية خفيفة، حيث تصدح الموسيقى، وتضج الأسواق...

يصل فايس إلى حافة اليأس، يلومني: حسناً، لماذا سافرنا عبر الجبال!
– أما أنا فصامت، أبتعد عنه بغضب.. إذ بإمكاني أن أزعجه بالسؤال نفسه. فليأخذه الشيطان! يمسح شكري حصانينا بخرقة، يذيب بها الثلج ويمرّج الوبر. أما الحصانان فلا يستجيبان، حتى أنهما لا يريدان أن ينفضا الرطوبة عن جسميهما. سيطر عليهما اليأس كذلك.

– هيا يا شكري، فلننطلق.. لن نقف منتظرين الصيف هنا!

دفع شكري ركبتي قائمتي البغل إلى الخلف.. كان صامتاً غير واثق من نفسه.

كيف حدث ذلك، يصعب علي تذكر التفاصيل. غصنا في الثلوج، وتمكن شكري من تخليص بغله ناحية ضفة الخليج الأبيض. تمسكنا، أنا وفايس، بزمامي حصانينا، مبتعدين عن الحفر التي أحدثها بغل شكري. سار فايس أمامي، والحصانان أحدهما أمام الآخر متلاصقين.. اهتزت قوائمهما المتهاوية بخطوات قصيرة. وفجأة غاص الرمادي بعمق، وخلفه الأشيب هوى بحزن. لثوان، بدت الدهشة على الحصانين فلم تصدر عنهما أي حركة. كانا يئنان، ثم يصدران زفيراً طويلاً قبل أن يبدأ صراعاً يائساً مع الثلوج التي حاصرتهما. فجأة، انتفض الأشيب نحو الأعلى، أما الرمادي فتهاوى وحط فوق كتفي حصاني. صهل الأشيب بقوة، وارتمى على جنبه، وضم قوائمه إلى بطنه بلا حول، ولم يتوقف عن التأوه. أما الرمادي فتمكن من النهوض، سبح في الثلج ووجد مكاناً صلباً ارتقاه. حرك الأشيب رأسه باحثاً بأسنانه المغطاة بالثلوج. عيناه كادتا أن تخرجا من تجويفيهما، قبل أن تفيضا بدموع الألم.. وبدأت بقعة دم حارة بالتمدد على الثلج. قائمته الأمامية اليمنى كانت مكسورة.

ركض شكري نحونا، وبحذر تقدم فايس. كان شكري مذهولاً حزيناً، بدأ يمسد جسد الأشيب ويبعد الثلوج عنه. بعناية ورفق مد يده إلى القائمة المكسورة، ونفخ عليها كما ينفخ الأطفال على أماكن الوجع. ازداد الألم على الحصان، فرفس شكري على كتفه بحافر قائمته. وقع شكري وكأنه لم يتأثر بالضربة، نهض وبات يسحب الأشيب من ذيله وهو يصرخ ويشتم، بكلمات غير مفهومة.

ـ ساعدوني! الله يخرب بيتكم! ساعدوني يا أولاد الكلب!

ـ فلنطلق عليه النار يا شكري. لماذا تزيد معاناته؟

ـ لا. أطلق عليّ النار أولاً، وبعدها أطلق النار عليه. اسحباه.. ذلك أفضل لكما!

صهل الحصان وأنّ.. كانت معاناته لا تطاق. أما شكري فطوق رقبته بيديه وسحبه حيناً، ثم جره بذيله حيناً آخر، ولم يعرف إلى أين يسحبه. كافح الحصان، وضرب وجهه بالثلج، فحشا الثلج فتحتي أنفه، قبل أن ينثره علينا ذائباً. حاولنا طويلاً أن نقنع شكري ألا يزيد من معاناة الحصان، أن نطلق النار عليه. إلا أنه لم يوافق، كان يبكي موجهاً ناظريه نحو السماء، وهو يصيح: يا الله!

أكان ينتظر معجزة ما، أم أنه لم يتمكن من التغلب على مشاعر الشفقة تجاه حصانه. أشار بسبابته نحو الأشيب وقال مختنقاً بالدموع: هذا ابني، ابني الجميل، بنيّ الصغير! – ثم انهار ووافق أخيراً: حسناً.. أطلقا عليه النار.. – قبل أن يتنحى جانباً ويغمر وجهه بالثلج.

أخرج فايس من حافظته الجلدية مسدساً إنكليزيا كبيراً، ذا رصاصات كرصاصات بنادق الجنود. اقترب من الحصان، وسحب الزناد بسرعة. انتفض جسد الأشيب متألماً ناثراً الثلج في الأرجاء، وأصاب الألماني بسهام عينيه السوداوين الرطبتين. رن جرس الرصاصة مخترقاً صمت الجبال. قفز شكري، وانقض على فايس بقبضتيه: أيها اللعين.. قتلته!

شحب وجه فايس من الإهانة، فوجه المسدس إلى وجه شكري. قفزت نحو فايس، وسلبته المسدس. أما شكري، فلم يكن ليشعر بأي خوف أو خطر. تنحى من أمام الألماني، واتجه نحو الأشيب، عانق جسده الدافئ الراكد. فالموت حلّ عليه في لحظة.

لفترة طويلة لم نستطع التحرك من مكاننا. كان شكري يكيل الشتائم وهو يبكي.. يهذي يتحدث إلى البغل، ثم يتجه نحو جثة الأشيب ويكرر بيأس: آه، يا ابني! إنه ابني!

كان قد اختفى أثر الشمس، وغادرت البحر صفحتة البرتقالية فاستعاد زرقته الداكنة المشوبة بخضرة. أما صيدا التي كانت متوهجة بأشعة الغروب فاستكانت. والشاطئ الزجاجي للبحر انفصل بتميّز عن المدينة. ومن مكان ما في الأسفل، كانت تنعكس أضواء صغيرة.

ركبت البغل، أما شكري فسار في المقدمة، ملوحاً بذراعيه متنهداً بيأس. توقفنا، بات الظلام حالكاً. انتظرنا أن يطل القمر من وراء الجبال. انتظرنا لثلاث ساعات، أما الحصان والبغل الجائعان، فبفارغ الصبر انتظرا، وهما يقرعان الأرض بحوافرهما بين حين وآخر. كان الرمادي ينظر حوله، يصهل وهو ينادي على الأشيب.

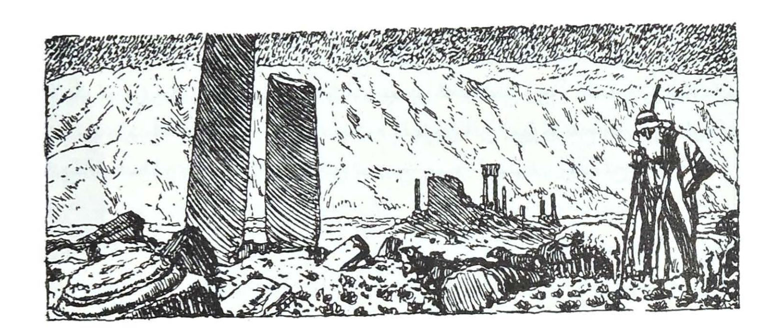
كانت الجبال صامتة، وحفيف أمواج بالكاد يسمع من جهة البحر، ويصلنا صوت كأنه موسيقى. ربما كان موسيقى، ربما لا، إلا أنه كان مسموعاً. فايس كان يتنسم عبير أشجار المشمش المزهرة، ويطلق أنيناً - آه، لو أن الغيوم السوداء تخفي عن أنظارنا صيدا اللعينة!

ثلاث ساعات طويلة من الانتظار فيٍ البرد، وتحتنا غير بعيد عنا، مدينة دافئة مريحة. كنا كمن يموت موتاً بطيئاً من العطش في عرض البحر، فالمياه من حوله لكنه لا يستطيع أن يشرب منها. بالقرب منا مدينة، أما متى سنكون فيها فالله أعلم. خير لنا ألا ننظر إليها فمرآها سيزيد من حزننا. أما عدم النظر إليها فليس باليد.. تنظر بلا إرادة منك. ما العمل في الجبال الصامتة المثلجة.. ليس أمامنا سوى تلمس ضوء أو صوت.

اقترب منا شكري وشرع يتحدث كيف أحب الأشيب ورافقه، وكم هو صعب فراقه عنه. وعندما ارتفع القمر من خلف القمم انطلقنا. غرقنا في الثلوج غير مرة، إلى أن باتت الدرب أكثر صلابة، ومع الصباح انحدرنا إلى صيدا مرضى بلا قوة أو حول. تهادى البغل مع الرمادي، بالكاد كانا يمشيان من التعب. بكى شكري وطلب منا أن نصلي لراحة نفس الأشيب.

ـ كان ابني!

أبو مسعود



АБУ
МАСУДЪ

أحببت أبا مسعود. كان شيخاً هادئاً، وسيم الملامح طويل القامة، مهيب الوجه، ذا ابتسامة دائمة طيبة. نحو خمس وستين سنة لم تحنه، فكان يمشي خفيفاً مستقيماً. هيئته المميزة كانت لتدلك عليه من بعيد، بين متاهات المنازل الصغيرة في بلدته الجبلية.

عندما جئت إلى مشغرة للعمل فيها، وهي بلدة صغيرة على الجانب الشرقي لجنوب لبنان، كنت أزوره باستمرار. كنت أسارع إلى بيته تغمرني مشاعر السعادة، وأنا أشاهد أبا مسعود يستقبلني بابتسامته المرحبة، يفتح ذراعيه واسعاً لاحتضاني، ويقبلني. يحتك خدانا اللذان مضى على حلاقتهما أسبوع، ونتصافح بقوة. تلك كانت عادة أبي مسعود.

ـ أهلا وسهلا! ألف أهلا وسهلا! لمَ أطلت غيابك عنا؟

يبادرني وهو يكاد يسحبني عن سرج فرسي. يساعدني في النزول. تخرج العائلة كلها للقائي. الزوجة - عجوز ملؤها الحركة ضئيلة البنية، مبالغة في الاحترام لزوجها، ابنه إبراهيم شاب جميل له ملامح أبيه، ابنته المراهقة، ابنه ذو السنوات التسع، كنته - زوجة بكره المهاجر إلى أميركا مع أطفالها. تركض الديكة والدجاجات والكلاب، ويعلو ضجيج مرح، وصخب وصياح.

نحتل غرفة فسيحة نظيفة، مفروشة بالسجاد، ينتصب فيها سماور قصديري، يحضّره أبو مسعود لي خصيصاً، فهو يعرف أن الروس يحبون الشاي. وهو كذلك يقسم الجنس البشري العظيم كله إلى قسمين، ناس يشربون الشاي وآخرون يشربون القهوة. كان يلازمني شعور رائع وأنا محاط بالاهتمام الحنون. كنا نتبادل التحيات والمجاملات، أجلس وفق العادة العربية إلى جانب أبي مسعود، ونتجاذب أطراف الحديث. كان دائماً يتحدث بحرارة وحيوية، وترافق الحديث إشارات ذات حدة من تعابير وجهه وحركات يديه، يرسم بحديثه لوحة تعبيرية شاعرية، مزيناً أحاديثه بالأمثلة.

ذات شتاء، كنت مسرعاً في طريق عودتي من البلدة، عبر الليطاني (ليونتيس القديم) المتدفق في السهل، تحت مشغرة. لم أشأ التوجه إلى الجسر البعيد، فآثرت عبور النهر على الرغم من المخاطر المحدقة بالعابرين في موسم الأمطار. وكان النهر قد فاض وتعكرت مياهه بالصفرة.

ـ أيمكنني العبور مباشرة، يا أبا مسعود؟ – سألته. أبو مسعود لم يجب:

ـ يا سيدي، عاش شخص في مشغرة، كان مثلك على عجلة دائمة من أمره، لم يرغب في التوجه إلى الجسر، عبر الليطاني وغرق. ترك وراءه زوجة وطفلاً حديث الولادة. ولما أتم ابنه العاشرة من عمره، سأل والدته: أمي، أين أبي؟ فأخبرته أن والده غرق في الليطاني. تعجب الطفل: لماذا؟ أكان أعمى؟ أجابته: لا، لكنه لم يرغب بالتوجه إلى الجسر، وعبر في الماء وغرق. سألها: كم سنة مرت على غرقه؟ قالت: عشر سنوات تقريباً. قال: أمي، لو لم يعبر النهر مباشرة، بل ذهب إلى الجسر، أكان ليصل إلى حيث أراد أن يصل؟ قالت: طبعاً. يا ابني الفرق فقط في ساعة مشي. قال الطفل: ذلك يعني أن أبي لم يتصرف بحكمة.

وارتسمت على وجه أبي مسعود ابتسامة رقيقة. بطبيعة الحال، بعد هذه القصة، توجهت نحو الجسر، ولم أخض في النهر..

كان أبو مسعود يكثر الحديث عن شؤون الرعية الأرثوذكسية الصغيرة في مشغرة، وكيف كان قبل عقدين الأرثوذكسي الوحيد تقريباً بين الكاثوليك. حدثني كيف أغراه بطريرك الأونيين بتغيير إيمانه، إلا أنه لم يفعل: نعم، زارنا منذ مدة الأسقف غيراسيم، وكان لدينا أيضاً الميتروبوليت الكاثوليكي، فقال له الأسقف: رعيتي صغيرة هنا، إلا أني أمسك بالغزلان، وأنت نصيبك من الحمير العرج مصلومي الآذان.

ونشر أبو مسعود على وجهه ابتسامته الطيبة التي أُحب. وافقت أبا مسعود في أن الرعية الأرثوذكسية في مشغرة تتألف من الغزلان، على الرغم من أن ممثليها الفعليين، الذين يترددون على غرفة أبي مسعود الفسيحة، لا وجه للشبه بينهم وبين الغزلان..

تحدثنا كذلك عن أحوال السياسة والمجتمع. هو لا يلوم جيل الشباب، كما يفعل باقي كبار السن، وإن كان لديه حق كامل في لومهم. فقد مر نحو خمس سنوات منذ هاجر ابنه إلى أميركا، بقصد تحصيل لقمة العيش. وترك على عاتق أبيه الشيخ زوجة وطفلتين صغيرتين، ولم يرسل قرشاً واحداً، بل كانت رسائله قليلة جداً كذلك..

ـ عما قريب ستهاجر مشغرة كلها إلى أميركا. كلهم يجهزون أنفسهم للسفر، بدافع الحسد. وصل ناصيف، وجلب معه خمسمئة ليرة ذهبية.. منصور أتى بثلاثمئة. الجميع يرغبون بذلك.

ـ هل مر عهد طويل على بداية الهجرة من سوريا إلى أميركا، يا أبا مسعود؟

ـ نحو خمس عشرة سنه، لا أكثر. في البداية هاجر الناس من جبل لبنان، للتجارة في أميركا. كانوا يشترون البضائع ويسيرون في القرى والبلدات هناك يبيعونها. وكانوا يحصلون الأموال. لو لم تمنع الحكومة الناس، لهاجروا جميعهم إلى أميركا..

ـ كيف يسافرون اليوم؟

ـ يحصلون على جواز عبور إلى حيفا أو يافا مثلاً، ثم يركبون البحر، والوداع! يقولون إنهم لا يحتاجون إلى جوازات سفر في أميركا.. يحتاجون إلى عمل، فقط عمل.. مذلة أميركا هذه! لم يعش أجدادنا هكذا، ولا أنا كذلك!
- بحرقة ولوم كبيرين خرجت كلمات أبي مسعود.

ـ وما المهين في العمل؟

ـ وما الجيد في تجوالك طارقاً أبواب البيوت، حاملاً كشة بضائع؟ يقولون



Мы любили помечтать, сидя на площадкѣ передъ домомъ.

إن مهاجرينا في الولايات المتحدة وحدها وصل عددهم إلى مئة ألف شخص. كلهم يتاجرون. الأميركيون يحسدون مهاجرينا أيما حسد، يرسلون بخدمهم ليطردوهم عن الأبواب.. عمل مذل لأنه لا لزوم له. بؤساء هم مهاجرونا هناك! المال الذي يحصلون عليه قليل، أما بلدنا فيفرغ شيئاً وشيئاً.. الزوجات بدون أزواجهن يفسدن، والرجال هناك في أميركا بلا زوجات، يجلبون معهم شتى الأمراض إلى بيوتهم إن أتوا.. ذلك أمر سيء يا سيدي!

ـ ابنك يتاجر كذلك؟

ـ لا، إنه في البرازيل، يزرع القمح..

ـ هل يعمل جيداً هناك؟

ـ يجب أن يكون كذلك، وإن كان لا يكتب شيئاً.

قال ذلك وقد كلل الأسى ابتسامته. ثم نادى على حفيدته الصغيرة، ذات السنوات الأربع، وبدأ يعلّمها:

ـ قولي يا رَبّي!

ـ يا لبّي – غمغمت الطفلة.

ـ أَرجِعْ لي أبي!

ـ أرجع لي أبي!

رددت الطفلة كلمات الشيخ، وضربت كفها على صدرها كما يفعل، ورفعت نحو السماء عينين عسليتين داكنتين. ثم أعطاها أبو مسعود من المضافة، قطعة سكر وبرتقالة، وأرسلها إلى والدتها.

عادة، مساء يوم وصولي إلى بيت أبي مسعود، يجتمع الضيوف في غرفته ليلقوا علي السلام. يجلسون بصمت، يستمعون إلى حديث أبي مسعود الجالس فوق سجادة قرب المنقل، يقلب الجمر وهو يغلي القهوة السوداء. كان الحديث يدور عن أن كل السوريين الأرثوذكس يحبون روسيا، ويدعون ربهم دائماً أن تعمل روسيا على حمايتهم من مضايقات المسلمين وأن تمنحهم الحرية في وطنهم الحبيب. كان أبو مسعود يتحدث، وهو يطالع الصور والرسوم في الجرائد التي أحملها معي.. ثم ابتسم ابتسامة عريضة وهو يحمل إحدى المجلات رأسا على عقب، يناولها أبا عبد الله قائلاً: خذ.. إقرأ لنا.

أخذ أبو عبد الله المجلة، ابتسم بخجل، ولكن ليتابع الدعابة مرّرها مجدداً: ربما أبو ناصيف يقرأ لنا شيئاً.. – وهكذا، كنا نشرب القهوة المرّة، ونقضي الوقت حتى موعد العشاء. بعد العشاء ترتفع جلبة النصف النسائي في المنزل.

أما إن وصلت إلى بيت أبي مسعود مساء، فكان يحذرني بالمثل الشعبي: ضيف المسا ما لو عشا.. إلا أن العشاء كان يظهر دائماً، ويظهر معه الضيوف، الذين يشاركوننا تناول الطعام، ثم يتبعهم ضيوف ما بعد العشاء. أبو مسعود لم يكن يتبع العادات العربية، كأن يخدم رب البيت الضيوف على المائدة، إذ كان يأكل دائما معي جنباً إلى جنب. فوق طبلية يتموضع صدر نحاسي كبير، وعليه الأطباق كلها. نتحلق جميعنا حول الصدر جالسين على الأرائك، ويأكل كل واحد ما يريده. مضيفتنا تقف بالقرب منا، وهي تعتذر بين حين وآخر عن أن العشاء متواضع ولا يليق بالضيف الكريم. وكان أبو مسعود يضيف: كما يحلو لك يا سيدي، نحن أناس بسطاء.. إن أردت عاتبنا إن أردت لا..

بعد العشاء، وقبل النوم، كنا نحب أن نجلس على المصطبة، أنا وأبو مسعود، نتأمل ونحلم. المصطبة كانت تطل كشرفة على البستان أمام المنزل. في الربيع، كان الجو يعبق بعطور زهر شجر المشمش واللوز الإجاص والتفاح. بالكاد كان يصلنا خرير قنوات الري. تحتنا، في العتمة، كانت الخضرة المجعدة تتمدد بين أشجار الحور والتوت.. وتظهر السطوح الملساء للبيوت منحدرة إلى الأسفل، نحو النهر الهادر بين الصخور. فوقنا، كانت ترتفع سماء الجنوب عالية بنجومها اللامعة. وراءنا، وتقريباً فوق رأسينا، تنتصب الصخور الرمادية الأبدية لجبال لبنان.

خرير المياه الجبلية، حفيف الحور، صداه في الجبال، كل تلك العناصر تندمج في همهمة غامضة مستمرة. أحياناً تبدو كل تلك الجبال والنجوم وقد جمدت في مكانها، وأخذت أرجوحة الطبيعة العملاقة استراحة لبرهة. دقيقة، ثم يبدأ كل شيء بالحركة من جديد، يرتعش لبنان العظيم ينفض عن نفسه صخوره الرمادية، تتوتر السماء، وتنشر على الجبال جلباب نجومها الجنوبية اللامعة. لكن لا، كل شيء يبقي على حاله جامداً، رائعاً كما كان.

في ذلك الوقت، لا طاقة لأبي مسعود على الحديث.. كان يبقى صامتاً، مقطباً حاجبيه الأشيبين. كنت أشعر أن قلبه العجوز وقلبي الشاب ينكمشان ويرتجفان في توق إلى أمر ما، أمر لم يُقل ولم يتم التكهن به. ومن وقت إلى آخر، كان يرمي إليّ بشذرات أفكاره.. ومعظمها كئيب. قال مرة: ها أنا أنظر إلى السماء، إلى النجوم وأفكر عادة، كم هي متشابهة. عندما كنت صغيراً كانت السماء مرحة وجميلة، والآن أنا شيخ لكنها لم تتغير، هي مرحة وجميلة. أما هنا، لدينا، فكل شيء يتغير بسرعة. سبحان الله العظيم!

– كل شيء في الحياة يتغير، لكن ليس دائماً نحو الأسوأ – قلت بحذر.

ـ ممكن – وافق أبو مسعود بسرعة – لكن يا سيدي، الثري المسرف عندما يبني منزلاً جديداً يترك القديم لتسرح فيه الأفاعي والذئاب والثعالب، أما الثري الطيب فدائماً يأخذ كل الأحجار الجيدة من المنزل القديم يصقلها، ثم يبني بها بيتاً جديداً حديث الطراز.. حتى أنها تكون في أماكن ظاهرة من البناء. ودائماً سيفخر بتلك الأحجار وهو يقول: يا إلهي! من يحب الأجداد، يجب أحجار الأجداد.

في ذلك الوقت تكون الغرفة قد أعدت للمبيت. تأتي الكنة بطشت ماء، وعلى الرغم من امتناعي، تغسل قدمي وفق العادات الشرقية. يشير إليها أبو مسعود، ويقول لي: هذه خادمتك.

أخلدُ إلى النوم بسلام وسط همهمة الجبل، المتسللة من النوافذ غير المحكمة الإقفال، في الغرفة الواسعة النظيفة. لكن أبا مسعود لا ينام، يتحدث طويلاً إلى الضيوف في الغرفة المجاورة، ويعطي زوجته تعليمات الغد.

* * *

هكذا بدت حياة أبي مسعود تسير هادئة.

في الربيع، كان يعمل في تربية دود القز، ينتظر يرقات الحرير. خصص غرفتين كبيرتين تحت الأرض لذلك. فيهما حلل خشبية كبيرة مليئة بالديدان. أراني أبو مسعود سلالات مختلفة منها، وحدثني عن عاداتها، وعن فوائد تربية الدود... وخلال ما تبقى من أيام السنة كان أبو مسعود يجلس في بيته، يدخن من تبغ مزرعته، وينفث الدخان بقوة من تحت شاربيه الأبيضين. أحياناً كان يتدخل في الحياة السياسية لمشغرة، وفي علاقات المذاهب بعضها ببعض. فإن تشاجر الأرثوذكس لسبب تافه في ما بينهم، يجد أن من واجبه مصالحتهم،

وإلا فالغاضب سيتجه إلى الكاثوليكية. وإن أتى الواعظ البروتستانتي للتبشير بمفاهيمه الضالة حول الكتاب المقدس، وعلى الرغم من أن أحداً من الأرثوذكس ما كان ليفهمه، إلا أنه يجد أن من الضروري منعه.. كي لا يُضِلّ هو أو غيره أحداً من أبناء الأرثوذكس. أما إن حصلت في مشغرة جريمة ما، وأرسلت الحكومة بجنودها توزعهم على البيوت للتضييق على أهلها كي يسلموا الجاني، وكانوا يبقون لشهور، فيحرص أبو مسعود أن يحرر أبناء الأرثوذكس من تلك الأعباء.

لكن روح أبي مسعود لم تكن لتهدأ.. كان الأطفال يؤرقونه. كان أكثر فأكثر يختلس النظر بأسف نحو كنته، وبحنان زائد يلاعب حفيدتيه الصغيرتين. ابنه الثاني، إبراهيم الوسيم، توجه للخدمة في البلدة المجاورة، لكن أخباره الجيدة كانت قليلة. كان سكيراً فاسداً. عندما كان أبو مسعود يتحدث عن الأولاد، كان يتنهد بحرقة، وفي تلك اللحظة كانت زوجته تشرع ببكائها الصامت، وتحنو على ابنها الصغير.. الذي غدا وحيدها.

* * *

كنت قد انقطعت عن مشغرة لأكثر من نصف عام، ولم أر أبا مسعود. سمعت فقط بموت ابنه إبراهيم الوسيم، بعد تدهور صحته بفعل سلوكه المنحط. وعندما وصلت أخيراً إلى جوار البلدة، ونظراً للظروف، كان ينبغي بي أن أخالف عادتي في التوقف عند صديقي.

ومع ذلك، وقبل أن أنزل عن صهوة فرسي، من البعيد بين السطوح الملساء للبيوت الصغيرة ميّزت قامته الضخمة. مشى متكئاً على عصاه الكبيرة كالعادة، وكان كسابق عهدي به قوياً صلباً. لكن عندما دنا مني كدت أفقد صوابي. الشيخ المسكين كم تغيرت هيئته! عيناه الطيبتان بدتا حزينتين بشكل رهيب، وجهه غدا داكناً، ولحيته التي لم يشذبها منذ وقت طويل طالت وكثفت.. أما

هندامه فحلت به الفوضى. بصمت فتح الرجل ذراعيه محيياً وقبلنا واحدنا الآخر. كان صامتاً يتنفس بصعوبة ويجاهد ليبتسم. نظرت إليه بأسى.

ـ سمعت يا أبا مسعود بمصيبتك، لا تحزن - حاولت مواساته.

ـ أملي بربنا - قال أبو مسعود.

لكن فجأة، اهتزت لحيته، ومن تحت حاجبيه الشائبين الكثيفين انهمرت دموع كبيرة. انهار الرجل، ووضع يديه على كتفيّ، اتكأ، ومسح بكتفيه دموعه المنهمرة.

ــ الله أعطى، والله أخذ - قال قول أيوب القديم - لكنني متألم. قلبي يؤلمني، ولا يمكنني فعل أي شيء. أشفق على امرأتي. أتعرف، نحن العرب، إن خسرنا أحداً... حسرة.. زرني، تعال إليّ عندما تجد وقتاً.

انشغلت بأعمالي، كنت ألحظ أبا مسعود خلال النهار جالساً على المصطبة، هناك، حيث كنا نحب معاً قضاء الأمسيات. بدا وكأنه لم ينظر ناحيتي أبداً، لكن يظهر أنه كان ينتظر قدومي.. في المساء توجهت إلى أبي مسعود. كان يجلس في المكان عينه، لكن عندما لاحظني نظر إلى البعيد. كما لو أنه يقول: لم أكن انتظرك، أما وقد أتيت.. فمرحباً بك.

بدت بصمات الحزن على الغرف غير المنظفة.. بدت علها أمارات الإهمال. لم تظهر العجوز، ولكن من بعيد وصل صوت أنينها الحزين. بيديه المرتعشتين نصب أبو مسعود السماور، ولم يستمع لاعتراضي.. انشغل بإعداد الشاي:

ـ بقي لدي واحد فقط - قال وهو يشير إلى ابنه ذي السنوات العشر - أولهم في أميركا، لا يكتب ولا يأتي.. والثاني حتى لو أراد فلن يتمكن من المجيء.

القصص والرسوم:

في هذا الكتاب، تم استخدام رسوم من الطبعات الأولى للكتب المحفوظة في المكتبة الروسية الوطنية - سان بطرسبورغ:

١. «قصص سورية» في جزئين، س. كوندوروشكين، رسم ي. لانسيري (سان بطرسبورغ: إصدارات زنانيه، ط١: ١٩٠٨-١٩١٠)

الفنان يفغيني يفغينوفيتش لانسري (١٨٧٥-١٩٤٦) رسام روسي سوفياتي. حاز على لقب فنان الشعب الروسي سنة ١٩٤٥، ولقب فنان جورجيا الإشتراكية السوفياتية سنة ١٩٣٣. الفائز بجائزة ستالين من الدرجة الثانية سنة ١٩٤٣. هو ابن النحات الشهير ن. ي. لانسري. زينت رسوماته وزخرفاته عدداً كبيراً من الكتب في الحقبتين القيصرية والسوفياتية.

٢. قارع الأجراس - قصص للتلامذة الأكبر سناً، س. كوندوروشكين، رسم وغلاف د. ميتروخين (موسكو: إصدارات إ.د. سيتين، ط١: ١٩١٤)

الرسام دميتري إسيدوروفيتش ميتروخين (١٨٣٣-١٩٧٣) رسام ومصور ومصصم زخرفي ونقشي روسي، له إسهامات كبيرة في تطوير الرسم للمطبوعات.يعتبر مؤرخاً للفنون، وكان عضواً في العديد من الجمعيات الفنية وأستاذاً في المعهد العالي للفنون والتصوير الفوتوغرافي (١٩١٩-١٩٢٦)، بروفيسور إدارة الطباعة في المعهد العالي للفنون والتكنولوجيا (١٩٢٤-١٩٣٠) في مدينة لينيغراد. حصل على لقب فنان روسيا الاشتراكية السوفياتية في العام ١٩٦٩.

٣. في جبال الثلج - قصص، إ. كوندوروشكين، الرسم للفنان إغناتي كونستنتينوفيتش مروتشكوفسكي (موسكو - لينينغراد: الإصدارات الحكومية، ط١: ١٩٣٠).

الصور المستخدمة في القسم الأول من الكتاب:

١. كوندوروشكين في سان بطرسبورغ ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٣، من مشروع «شجرة العائلة الروسية» ليليا فلاديميروفنا كوزمينا. على الرابط: http://forum.vgd.ru

٢. كوندوروشكين مع معلم اللغة العربية، دمشق ١٩٠٣، من مشروع «شجرة العائلة الروسية».

٣. كوندوروشكين وزوجته يليزافيتا، دمشق ١٩٠٤، «مشروع «تراثي»، موقع عائلة ليليا كوزمينا، على الرابط: http://www.myheritage.com

أما القصص المعربة المختارة لهذا الكتاب فهي إحدى عشرة قصة تدور أحداثها الرئيسة ضمن حدود الجمهورية اللبنانية، ومصادرها:

* يوم البريد في راشيا: «روسكويه بوغاتستفو»، عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢.

* بنت البيدر: قصص سورية، ص ٢٥٣.

* حفار القبور: قصص سورية ص ١٤٣، و«روسكويه بوغاتستفو»، عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢ ص ٢٣٥.

* المصيبة وحيدة: قصص سوريه ص ٣٧.

* إنكليزية: قصص سورية ص ٤٩.

* عرفت عرفت!: قصص سورية ص ١٥٣، وقارع الأجراس ص ٧٧، و«روسكويه بوغاتستفو» عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢ ص ٢٦٢.

* شاهين هدلا: قصص سورية ص ٥٥، و«روسكويه بوغاتستفو» عدد آذار/ مارس ١٩٠٥ ص ٦١.

* أكولينا في طرابلس: قصص سورية ص ١٢٨، وقارع الأجراس ص ٥٥، و«روسكويه بوغاتستفو» عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢ ص ٢٤١.

* كوكوكو: قصص سورية ص ١٧٩، وقارع الأجراس ص ٩٢، و«روسكويه بوغاتستفو» عدد كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٢.

* في جبال الثلج: قارع الأجراس ص ١١٥. وضمن مجموعة قصصية باسمها جمعها إ. كوندوروشكين ص٣.

* أبو مسعود: قصص سورية ص ١٣١، وقارع الأجراس ص ١٠٤، و«روسكويه بوغاتستفو» عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٠٢.

"الجمال الإلهي للطبيعة أمام انحطاط الإنسان، الإخلاص لدين الآباء والجشع المدمّر، القوة العظيمة للحب إلى جانب القسوة الوحشية للبشر، سموّ الروح والخنوع الفاسد في محضر السلطة... أناس ذوو مصائر مختلفة كانوا في طريق مفتش مدرسيّ متواضع، خدم في دائرة راشيا اللبنانية. صوّرهم في نصوص يحيي عبرها لبنان مطلع القرن العشرين، الذي كان على عتبة الفوضى الرهيبة للحرب الكونية المقبلة. ذلك اللبنان، رسمته عينا معلم روسي يعيش بعيداً عن المدن الكبيرة، حفظه لنا، وللعالم، في قصص قصيرة.







info@daralmoualef.com